


ميرال الطحاوى

# نقرات الظباء

رواية

إبداع المرأة





لوحة الغلاف للفنان خوان ميرو

بورتريه للكاتبة ميرال الطحاوى

# نقرات الظباء

رواية

# نقرات الظباء

رواية

ميرال الطحاوى




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

## مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة إبداع المرأة)
إشراف: عفاف السيد

نقرات الظباء «رواية»
ميرال الطحاوى

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

## على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

على صدري حطّيت شهايد*
بـلا مـوت يَاعَلَـم

* شهايد: علامات توضع على القبور.

# 1

كانت «هند» دائمًا صغيرةً وبجديلتين وأشرطة، رأيتها تجلس على ساق سيدة، زنجية شديدة السمرة، على رأسها عقدت منديلاً أبيض وتطرّحت بالسواد، عليها ثوب قصير بوردات، وعلى خصرها حزام من الخرز الذي تضعه الغجريات وتحته سروال منتفخ بربطة على معصم الساق قالوا إن اسم الخادمة «انشراح»، وكانت تقف إلى جوارها «سقاوة» الكبرى الممتلئة، و«سهلة» النحيلة حتى الآن، كانت «سهلة» هي التي أعرفها تمامًا والتي تعرفني منذ كنت في الأقمطة وهم يبحثون عن امرأة تلقمني صدرها.

«النجدية» لم تكن في الصورة، كانت حاضرة خلف الإطار، ربما كانت تعد القهوة على طاولة القاعة الكبيرة، حيث تراصت قدور نحاسية عديدة، وانكفأت إحدى الخادمات لتلميعها، أو كانت تفترش الأرض وسط مجلسها في البلكون المطل على أشجار توت ضخمة ومزيّرة وبعض غرسات البرتقال التي كانت تخلق في الربيع ذلك الدويّ لنحلات صغيرة.

تجـول هند وهي ممسـكة بهـذا «الكشـكول» الذي تدوِّن فـيـه أسرارها التي لم يعرفها أحد، وإذا دخلت إلى المشى، فستجلس على جزع شجرة المانجو الهندي التي يبدأون في قطافـهـا أولاً؛ لأنهـا تنضـج قـبل الأخْـرى، أو تقـرفص على غـابة من أشـجـار الجوافة التي في آخر الدغل. هناك ستراه ممسكًا بصدر «فرحانة» الخادمـة التي تتقـافز كقردة فوق التـراب، ويتأرجح لهـاث صدرها وسط الخرزات التي تنفلت من عقدها، بعد ذلك ستحكي خادمة أخرى اسمها «روضة» سمراء أيضًا ولها زعرورتان من شعر ملبَّد جَعد أنه كان ينتظرها أسفل التلة حيث تعود بالبهائم في المساء ممسكة بمقود المهرات الصغيرات الثلاث. تعرف «هند» أنهم إذا أطفأوا «الكلوب» وانتهوا من حكي الحواديت وتسربت أخواتها إلى فراشهن تاركات الخادمات في قاعة الطبخ يعدلن من وسائد القش تحت رؤوسهن، سيحكين عنه. تقول «روضة» أيضًا «إنه بلغ. والأولاد في هذه السن يصبحون كالطلائق أو ذكور الجمال إذا هاجت»، وستضحك «إنشراح» التي تقول: «يكفيـه فاطمة القرومية» وستحاول «هند» التي تتلصص على بقايا الحكي أن تفهم كيف يمكنه ذلك، وهو الولد النحيل الذي تراه في الأعياد صَغيراً يقبِّل يد «النجدية»، ويقـول لها يا «حنى» بدلاً من يا «آنا» كـمـا يقـول الأتراك، وهي تربت على رأسه وتُصِرُّ في يده قرشًا أحمر.

هند التي لم أرها في غير هذه الصورة التي كانوا يقفون أمامها في غرفة الصالون التي امتلأت حوائطها بالصور الباهتة، لم يكن لها صورة عرس، كانت فقط منزوية على حجر خادمتها «انشراح»، صغيرة وبجدائل، يقفون أمامها؛ ويرددون تلك الكلمة «مسكينة»، وقد صاروا لا يتكلمون عنها؛ لأنها بدت بعيدة وخارج كل ما يخصهم، قالت الجدة «النجدية» تلك الكلمة، ثم أكملت أنها لما رأتها آخر مرة كان شعرها كثيف البياض، وجسدها شديد النحول، رأتهم وهم يسكبون الماء على جسدها قبل أن يلفُّوها بالكفن، بعدها ينثرون العطور وينصرفون، دون أن يصرخوا أو يبكوا أو حتى يلبسوا ثياب الحداد، كانوا قد أعلنوا عن موتها قبل ذلك بكثير من يوم أن أدخلوها هذا البيت وأغلقوا النوافذ والأبواب، وانسحبوا غير منتبهين إلى صراخها، وقالوا: «مسكينة» ثم تحاشوا ذكر اسمها؟ رجعوا سريعًا إلى بيوتهم، لكن «هند» منذ ذلك الحين تأتي إليهم. أول مرة شاهدوها وهي تركض في الفناء، كانت مهرة ناعسة على حجر النجدية، وهي تحكي لها حكاية «السُّهى» تلك الظبية التي ركضت في السماء، ولأنها تركت وليدا صغيرا على الرمال لا يعرف كيف يهرب من صيَّاده، تركت له نقراتها المضيئة نجومًا تتنبأ بمواضع الخطر، تفرد «النجدية» أصابعها محددة ساعات النحس حين يهل الهلال

والسهى عن يساره، وأيام الزعابيب حين يصير القمر بدرا، والشعرى اليمانية جنوبًا والسُّهي في القلب، هكذا تؤرِّخ «النجدية» لأيام الضيق وأيام الفَرَج.

نظرت باتجاه «هند» التي ركضت أمامهم صبية صغيرة بضفائر في هيئة قطة، فالتفتت (النجدية) إلى «سهله» الجالسة جوارها، ثم قالت «يابنت ياسهلة.. البطن هي التي تكب وليس القلب يانضري»، «سهلة» التي أسندت جسدها على عمود التراس أنامت رأس الصغيرة على حجرها، وبدأت في تقليب شعرها بأصابعها، وأعادت تضفيره، وهي ترتِّل الرقي والتعاويذ، لكن هند صارت تأتي أكثر، تتلحس أقدام مهرة؛ فتستيقظ وتضمها إلى صدرها، لتعرف كيف تنام وسط شخيرها، تنبش في السجادة، حتى تجتر خيوطها بمخالبها، وحين صارت تقول ذلك لهم كانوا يربتون على كتفها ويقولون إنها مجرد هواجس، صارت تبكي أكثر متأكدة أن ثمة فضاء أبيض تسير فيه عارية، وهند تطير حولها كفراشة، وقد تضحك أو تسخر منها، وكانت متأكدة أن الكلاب إذا نبحت فقد رأوها مثلها حتى لو كانت في هيئة فراشة أو طيرة أو قطة تلحس في قدمها وأنها كانت تأتى إلى كثيرين مثلها، هى التي قبَّلت «سقاوة» في فمها لترحل، وهي التي رأتها «النجدية» تُحكِم عليها الغطاء قبل أن يسبِّلوا عينيها ويقولون الله يرحم الجميع.

# 2

لا تعرف من أسماها بهذا الاسم «سهلة». في الميردديه، حيث أخذتهن الجدة النجدية ثلاثتهن وأسلمتهن لمدموازيل «آنيتا» أطلقوا عليها اسم «روز»، ظلت ثماني سنوات بهذا الاسم، حتى أتى «مللوم باشا الباسل» ليقبِّل صغيراته في آخر الحفلات المدرسية ويجمع حقائبهن ليعدن حيث تجلس «النجدية» على البساط في البلكون، فمازال لهن على ضفة خليج منازع أو إقطاع البدوان أرض ومرابط خيل وبيت من الشّعر* في فناء تحيط به حدائق المانجو والبرتقال من كل اتجاه، كانت «هند» من بينهن هي التي تعرف كيف ترتدي السراويل الضيقة، وتضع على رأسها قبعات القش ذات الوردات، ولها صورة كبيرة وهي تلعب في الاسطبل برفقة فتاة سمراء من العبيد الذين يسمونهم «عبيد عيلة منازع» كان اسمهم كذلك قبل أن يكتشفوا أن هناك أسياداً أكثر ثراءً فيشحنهم «مبارك العبد» ليعملوا في تلك الأرض البعيدة التي يخرج منها النفط حيث يجيدون - كما هم دائمًا - سلخ الضأن وغلي القهوة بالحبّهان والهيل وتدليك

* خيمة بدوية من شعر الضأن

السيقان بالماء الدافيء والريحان الأخضر، هم بارعون في وقد النيران ويعرفون كثيرًا عن الصقور والشواهين، كتنظيف ساق الطيرة حتى لا تُصاب بالبثور، ومكافأة المهرات بقطع السكر، وترويض الكلاب السلوقي، كانوا بارعين تمامًا في تلك الأعمال طالما أن الأسياد بارعون أيضًا في أن يظلوا على سيادتهم، ولا يتهدل لعابهم على أصداغهم وهم يحجكون عن أمجادهم بصيغ التذكُّر أو التحسُّر على ما كان.

الأميرة «مهرة» بنت آل الشافعي، كما كانوا يلقبونها، تسكن الآن بيت «النجدية» مثلما سكنته هند وسقاوة وسهلة ويجلس أبوها أمام بيت الشَّعْر يتوسَّد ساق العمة «مزْنَة» ويقول لها «يامزون الله يرحم والديك كان جدك الكبير «الشَّافعي» يطوف بالقوافل من سنار إلى قوص وقفط فعيذاب دون أن يجرؤ أحد على حثِّ الرمال في وجره جماله..»، العمة مزنة التي بقيت له من أخواته الكثيرات كانت تأتي على حمارة بخرجين تُعَبِّئ له فيهما القديد واللبن الخضيض وجميد الجبن المالح لسفراته الطويلة، هي التي علمتها كيف تقرفص ساقيها على البساط، وغزلت (لمهرته) عرائس من وبر الضأن ورقَّعتها بالأحجبة وحملتها على ساقيها كثيراً وهي تكركر مقلِّدة ركض الجمال وتهنهن «ما انك للى يصيد عويل ولانك ثوبة* للرعيان» لتؤكد لها دائما أنها «ابنة عرب» وأنها فرسة أصيلة، فالجد

* ما أنت صيدة سهلة، ولا غنيمة يغنمْها الرعيان.

الأكبر «الشافعي السُّلَيْمي» كان كريمًا أكرم من حاتم الذي يحكون عنه في الحواديت، وكان فارسًا يركض حول ربوة يسمونها «العالية» قالوا إن بهاً إحدى زوجاته التي أطلق عليها الخرطوش، لأنها قررت هجره، وأنه مجنون تمامًا كان بصحن داره الواسع عدة نخلات يجلس تحتها وحينما يمر الناس من على بابه فعلى كل من يركب دابة أن يترجَّل عنها، وأن ينظر في الأرض حينما يمر، وأنه جلد كثيراً من «الغرابوة» على هذه النخلات، لأنهم همج ولا يعرفون تلك الأصول، كما أنه كان يوقد ناره قبل أن تدخل الكهرباء إلى أرضنا، ثم يركب فرسه ويمر على الأبواب ويسألهم «نار من هذه ياولد؟!» وكان نصيب من يجهل نار آل الشافعي أن يجلده على تلك النخلات، ويعود ليتصدَّر مجلسه وهو يلعن الزمن الذي لم يعد يعرف للرجل أصل من فصل، وكان الكثير من الصبية يعتقدون أنه مجنون؛ فمازال يتصور أن نيرانه هي التي تبحث عنها القوافل المتعبة ليقربها، بينما كانت العربات التي تجري على الطريق المسفلت تمضي من أمامه طول الوقت، هذا الجد الذي أورث أبي بيت شَعْره وعدد من كلاب سلوقي وعدة للملفاف* وبعض الفدادين التي قسَّمها بين أولاده الكثيرين كان حريصًا على أن يجد أحداً من أولاده يتصدر مجلسه من بعده، وكان أبي يعرف كيف يفعل ذلك، رغم

* صيد الطيور الجارحة

أنه تلقى تعليمه في فيكتوريا كولج، وكاد أن ينال ليسانس الأدب الإنجليزي، لكنه كان متيمًا بتلك الجلسة حول النار التي تترك رمادها يسف في الحلوق، فقد كان يقضي معظم وقته في تلك الجلسة. كان هناك إلى جانبه «سرور» و«مبارك العبد» وكثيرون يجدون متعة في تدخين بعض الأشياء النفاذة، وشرب القهوة المذاب فيها الأفيون ومضغ بعض الحكايات عن أحد أفراد الأسرة خصوصًا الجد الأكبر ورحلات قنصه في أرض الهيش والمالح. أو الجد للأم منازع ورحلاته إلى أرض السبخ والسودان، كان مع ذلك يتحدث بطلاقة ويحفظ أشعار جوته. وهو الذى درّس لي روايات شكسبير بإنجليزية متميزة وصوت متزن ممسرح كان يبهر كل خلجاتها.

لكنه لم يوافق على الإطلاق - رغم ثقافته - على المدارس الداخلية. وقال لها إنها أفسدت عقل أمك وخالاتك، هو الذى اقترح تلك الفكرة المضحكة أن تذهب إلى مدرسة ربْع منازع الابتدائية محمولة على كتف عبدة سمراء لأحد أبناء «مبارك العبد» كان اسمها «نوار»، كانت تضعها في المقعد الأول من الصف بعد التنبيه بألا يجلس أحد جوارها، معظم مدرسي المدرسة التي كانوا يعرفون أن عليها اسم جدها كانوا مقدرين رغبة أمها بنت للوم باشا الباسل ألا تتعلم أشياء مخلة، خصوصًا أن كل من حولها هم مجرد فلاحين، تعرف العمة

«مزنة» بالتفصيل كيف تقول «حبايبنا وطول عمرهم خدامينا»، تقول كلمة خدامينا بتواضع وكأنه شرف كانوا محظوظين به، بعض المدرسين الجدد كانوا ينظرون إلى «نوار» التي تجلس على باب الفصل في انتظار حملها بتطفُّل وأحيانًا باستغراب، بل وتجرأ أحدهم وأنزلها ذات مرة من شباك الفصل الذي كانت تمدد عليه ساقيها وتهزهمها منخرطة في غناء «عايش في عزه ودلاله، من كتر نياقه وجماله وعنده عزوه من رجاله ما فيهم واحد دلال*» حين جذبها من ذراعها، وهو يقول «فاكرة نفسك في عزبة أبوك»، أبوها الذي قال له إنها عزبة أبيها وجدها وأن تلك الأرض كانت لهم منذ كانت حمراية تسف الرمال لا يجرؤ على المرور بها عفريت النهار، وأنهم كانوا أسياده حين كان آباؤه يأكلون الخراء في تلك القرى الحقيرة التي كانت تفتك بها المجاعات والتيفوس ولا يتسع النهر لجثث أمثاله، بينما كان جده «منازع» هذا الذى اسمه على المدرسة يركض بفرسه من المشرق إلى المغرب ويخط معالم هذه الأرض المقفرة، المدرس الذي بدا غير متفهم، نصحه بعض أصدقائه بالإعتذار لأنهم «عرب» وطباعهم صعبة، وقد يفعلون أى شيء إذا جرح أحد كرامتهم،لم يقتنع تمامًا بما قيل فاحترقت ذات مساء تلك المدرسة الابتدائية

* أهزوجة تتحدث عن الأصل الطيب في كثرة الولد وكثرة النوق والجمال.

التعسة وكان الأب يجلس في مضيفته سعيداً وراضيا يحتسى مزيداً من مغلي القهوة ويقلب في الرماد. مشكلة المقعد الأول في الفصل تم حلها بهذا الحريق حيث افترش الجميع الفنا الرملي بلا مقاعد ولا كراسي، وأيضًا كلَّت «نوار» من حملها بعد أن تعلمت الركض ذهابًا وإيابًا خصوصًا أن المدرسة كانت تجاور سور البيت وتقابل بيوت آخرين قيل لها إنهم أعمامها.

كان الأب كريمًا أيضًا على طريقته فقد قرر أن يجلس في المَضْيَفَة ويشعل النار ويسلخ الضأن، يلتف حوله سرور ومبارك وبعض المتحمسين من الشباب يتحدثون دائما حول المشروعات الحضارية التي تحافظ على مكانة العائلة، كان كريمًا للغاية يبيع القراريط من أفدنته بما يتيسر لشاريها، وكان أكثر هؤلاء ممن يطلق عليهم الغرابوه والبرامـوه، وهم من أطراف الغربية من منطقة تدعى «برما»، ربما يشتهر أهلها بتربية الدواجن وبيع البيض، فقد كان معظم هؤلاء، نساء قصيرات بيضاوات يحملن أقفاصًا فوق رؤوسهن ويجلسن أمام المضيفة ويقلن «ياشيخ العرب» بلكنة مضحكة، يفتحن على إثرها مناديل رصصن فيها نقوداً ورقية متسخة يتعبن في عدّها قبل أن يتفقوا على أقساط طويلة لم تمكنه من إقامة مشروعه كما خطط له، وكان قد قرر أن يملأ (بالسلالات النقية) المرابط الخالية التي بقيت ملاصقة

للدوار وهي مداود فارغة نصفها متهدم، وأن يبني بدلا منها مزرعة تليق بتاريخ العائلة، سيبيع مزيداً من القراريط ليشتري سلالات أكثر أصالة، وسيجلس جانب العمة «مزنّة» التي تهز شنافها موافقة وهو يختار أسماء جياده ويقول لها «يامزون جدك الشافعي كانت فرسته اسمها «زاد المركب» كانت شقراء بلون صفار الغلة في الحقول، وكان جدك منازع يقول لو جمعت خيل العرب في صعيد وأرسلت واحداً لكان سابقها أشقر.. الشقرا أصبر يابنت والدي» العمة «مزنة». ستقول له «إن مهرة جدك منازع كان اسمها الزعفرانة، كانت صغيرة وهي تلعب أمام بيوت الشَّعْر، وكانوا يقولون الزعفرانة في سواد الليل غراء محجلة لكن نسلها قليل»، وسيقضون وقتًا أطول وهم يتجادلون حول الشقراء والدهماء، وسيقضي الأب وقتًا أطول وهو يطوف مع سرور في العربة (الجيب) اللاندروڤر يبحث في ديار قبائل الحويطات وهوارة وجهينة عن مهرات تصلح لحمل نتاج نقي، ويقف أمام كل جواد يبحث عن أنفه الذي يجب أن يكون متسعًا، ويتحرى عن طول العنق وعظم الفخذين وطول القوائم؛ ويؤكد أن المهر العربي صغير الرأس أكحل العينين، مصراً على أن يختبر خارطة الأنساب، وأن يتحقق من ذلك بطول العنق، فالفرس الأصيل يشرب دون أن يثني قوائمه، والمهجن يبرك ليطول الماء، وبعد عدة رحلات فشل في اكتشاف خريطة

الأنساب هذه، وأدرك أن الكثير من الأنساب قد اختلطت، وسلم واقتنع أن شجرة أنساب المهرة ليست ضرورية، بإمكانه أن يتزود بالفِراسة، ويتكهن بأصالة مشترواته بمجرد النظر، فأعاد التشاور مع العمة «مزنة» حول الكُمَيْت والدُّهمْة والشؤم من المهاري، حيث تربعت العمة معلنة أن «الأصبح» الذي في لون الضحى كثير، وأن «الكميت» الضارب إلى الحمرة لا يأتي بنتاج ضخم، وأن عليه أن يبتعد بعد ذلك عن قصر الظهر ويتأكد من طول البطن وتناسق الأعضاء، بعد أن جلب عدة مهاري وأجيرا يسَوسها، وتبادل أحاديث طويلة مع كركرة النرجيلة المسائية حول أسمائها «عقاب» و«السمي» و«جناح» و«البلقاء» حيث قلّب كثيرا بين دفاتر أجداده حول تلك المقولات التي كان يحاول أن تصل أسماع (سهلة بنت منازع) وهي جالسة في شرفتها كقولهم «إنا لنؤثر الجياد على الأولاد». (وعليكم بالخيل فإنها حصون العرب)».

«سهلة» التي كانت مشغولة بالنسوة اللاتي لا يكففن عن عدٍّ النقود الورقية والحديث عن القيراط الفلاني والقيراط العلانبي لم تعلّق، كانت تتركه يشارك العمة «مزنة» بيت الشَّعْر وغلي القهوة نهارا، وكركرة الدخان في المضيفة مساء، رضيت بتفقد بَضْعة أبيها من المهاري صامتة مكتفية بترفُّعها الذي

صار يُرى بوضوح يشبه تأملها لأصابعه المرتعشة وهو يصب لها قهوتها في الصباح ويقول ربما مواسيا بيتا ظل يردده حتى حفظته دون أن تدرك مهرة معناه..

قد يعسُر المرءُ حينا وهو ذو كرم
وقد يسوم سوام العجز والحمقِ
سيكْثر المالُ يوما بعدَ قلّتِه
ويكتسي العود بعد اليبس بالورقِ

تهز «سهلة» رأسها باقتناع أنه لا شيء يصلح معه، بعد ذلك صار البيت الذي يستقبل وفود «سرور» و«مبارك العبْد» من العرب والخليجيين. سعوديين وكوايتة، يتطلب ذبح مزيد من الشياه وتلميع غرفة الصالون؛ ليتاح لهم تأمل صورة الجد «منازع» وهو يعلق خرطوشه على كتفه في رحلة قنص، أو تفقد برواز به عقد إقطاع لشبه جزيرة سيناء للجد محجوب الكبير، وصورة للملك «سعود» مع مشايخ عربان القطر المصري، ودائرة حمراء حول رأس الجد الشافعي رافعًا جبهته بفخار وسط الصورة، صورة لهذا الجد أو ذاك وهو يهنّيء مولانا بولي العهد أو عيد الجلوس.. يحب أبي أن يتحدث عن مهاريه كثيرًا ويؤكد أن «الصَهباء» أصيلة، وأنه تعب كثيرا في مسألة الأنساب هذه، لكنها بالنسبة للعائلات الأصيلة مسألة محسومة، قد يحكي قصة ارتباطه بأمها «سهلة بنت للوم باشا منازع» التي

كانت له حتى لو لم يطلبها ولن يتحدث عن «هند»، سيقول فقط إن ابن العم ينزلها من هودج عرسها بكلمة، سيهزون رؤوسهم وهو يؤكد «نرميها للتمساح ولا يأخذها الفلاح» حاكيا قصة الجد محجوب الذي ألقى ابنته في النهر، سيقول خطبها عباس الأول، سينسى اسمها ويقول إنها كانت مثل الجازية الشريفة بيضاء ولها رقبة ناقة وأنها كانت بنت عرب ولا تقبل مثل هذا التركي الأحمر حتى ولو كان ابن الذات العلية، سيضطره ترديده مزيد من الحكايات لإيقاد النارتلو النار، والقهوة بعد القهوة، وذبح شياه جديدة واستدعاء «سرور» و«مبارك» و«نوار»، من بيوتهم ليقول إنهم عبيد عيلة منازع، بعد ذلك يستخرج بكارج القهوة الملطخة بالجنزار النحاسي في الصوان لتلميعها، والإصرار على نصب بيت الشّعر في قلب الفناء، وعادة ما تنتهي هذه الجلسات باستدعاء امرأة من نساء «البراموة» لتعطي أبي عدة جنيهات هي حصيلة اتفاقاته الأخيرة على بيع القيراط هذا أو ذاك.

بالنسبة لمهرة لم يحسم مسألة وجودها على الرمال في فناء المدرسة غير تجديدها، أو إعادة بنائها بعد شراء الأرض المقامة بجانبها من أحد أعمامها لتوسيعها، وبعد كل الإجراءات أزالوا اللافتة القديمة ووضعوا محلها (مدرسة رفعت عبد الحي الابتدائية الحديثة)، لم يعرف أبوها الذي رفع العديد من

المذكرات إلى إدارة التربية والتعليم منددا بالاستهانة بالتراث والأنساب، وتشويه الوقائع التاريخية والتساؤل أين كان هذا «العبد الحي» حين كانت كل هذه الأرض إقطاعًا من الرمل الجاف توارثه أولاد محجوب الكبير، وحين قالوا له إنه كان قائد الحرس الخامس ورجلا من رجالات الثورة عاد إلى البيت وتَرَسَ ظهره إلى حائط المضيفة ولم يتكلم، ظل يخط بعود جاف في الرمال بيد مرتعشة.

أمها هي التي أصرت على مغادرة المدرسة نهائيا، حزمت الحقائب وقررت مغادرة البلدة إلى بيتها الذي ورثته على منيل الروضة، ذلك البيت القديم ذو النوافذ العالية لعمارات الثلاثينيات، تركت للأب مراقبة سباق المهرات في فناء دُوَّارهم، وتركت للعمة «مزنة» فرصة تجريب وصفاتها في الحجامة وتصليب القوائم وتهدئة المهاري الحارنة بتدليك أنفها بدهن الورد، وتبادل المزيد من الحكايات حول النتاج والتلقيح وفطام «الحولي»، أو الصغير من الجياد.

# 3

جدها لأبيها الذي علقوا صورته على أول الحائط كان يدعى «الشافعي» ستقول مهرة: جاءوا من مضارب بني سليم، عندما حج أبي وجد من يحدثه عن تلك المضارب وقيل له إنهم أصحاب سلالة «الأعوج» من الجياد، والأعوج فرس صغير كانت قائمتاه شديدتي الطول، وكان يثنيهما في نومته لعظم طولهما، عندما عاد أبي ومعه كومة من المسابح ليوزعها في مجلسه في المضيفة، وهم يقولون له «ياحاج» كان يعدل من وضع عباءته ويقول:

«ليس في العرب فَحْلٌ أشهر اسمًا ولا أكثر نسلاً ولا أنجب نجلاً ولا أجرى في أشعارهم منه» يقولون من ياشيخ العرب؟! يبتسم بحبور ويقول: الأعوج فرس بني سليم. استولدوه لفرس النعمان بن المنذر الذي كان اسمه «اليَحْمُوم» وأمه من مهرة ركبها رسول الله في بدر يقال لها «السَّمَى». يهزون رؤوسهم ويتفقدون مربطنا الخالي بعيونهم، ويتحدثون عن إحياء التراث

البدوي بعقد صابية* كبيرة تتسابق فيها المهاري وتتبعها كلاب السلوقي.

وعندما تاهت بنا عربة أبي في أول مرة نجرِّب فيها مصيف «مطروح»، نزل أبي من العربة أمام مضارب بعض البدوان. كان جالسًا أمامها كهل يصحن البن، بعد أن افترش أبي المجلس وقال له متقربًا إنه سليمي من بني سليم شقيق هلال، حكى له الشيخ أن بني سليم كانوا هنا بمريوط، وتلك الأصقاع القريبة بعد أن عادوا من الجبل الأخضر، وأن بني هلال طاردوهم حتى عبروا النهر وشرَّقوا، ثم أجلاهم محمد علي إلى الجنوب، فكفى أبي قهوته وظل يصحِّح واقعة الهجج هذه من الغرب إلى الشرق إلى الجنوب، وانتهى به الأمر أن أخرج مسدسه من جرابه وقال إن بني هلال «بعر المطايا» كانوا يتسولون من بلد إلي بلد، ولولا سيف بنى سليم ما جرؤوا أن يُغرِّبوا ولا استطاعوا أن يقفوا للزناتي خليفة. وظلت المعركة قائمة أكثر من ساعتين بين سليم وهلال على شَفَتيْ أبي، وذلك الشيخ الذي هشَّنا كما يهش أغنامه، وكانت النتيجة أن ظللنا لأكثر من ثلاث ساعات ندور بالعربة ولا نعرف كيف نخرج من تلك الأرض الهيش المفخَّخة بملاحات واسعة، ونباتات برية، وأحراش، بعدها صحراء قاحلة،

* الصابية: ساحة سباق الخيل أو الرقص

لم يخرجنا منها سوى بعض الرعيان عثرنا عليهم أخيرا، بعدها قرر أبي عبور الجبل الأخضر بعربة «فولكس واجن» ليقابل الكثيرين الذين حدثوه عن سليم وهلال ونزاعهما الطويل حول بئر يقال لها «بئر هديوه»، أبي الذي انشغل طوال الرحلة بتقصي أخبار هذا النزاع، عاد جامعًا أشعارًا كثيرة أطلق عليها «ديوان الشعر النبطي في أقوال شاعر بني سليم في واقعة الإفك المبين».

جدي الذي علقت أمي صورته بجانب الصورة الأولى ولكن بإطار أكثر فخامة كان أخا لجدي الأول ولكني كثيرا ما شهدت معارك حامية بين الإطارين، فأمي تعتز بأن أباها قد أخذ الباشوية بينما ظل جدي لأبي راعيا للجمال بكعبين مشقّقَيْن يسكن بيت الشّعر ويوقد ناره راكضًا بكلابه السلوقي سائلاً الرائح والغادي «نار من هذه ياولد؟!»، ولم تمحُ تركته نظارة سَبَق مكبِّرة، ولا على ساعة من الذهب بسلسلة إيطالي من جاتينيو.

جدي لأمي كان يجلس في تراس بيته الذي بناه بالآجر وسقفه بالخشب والمرائن وطوّقه بأدغال من الزهور والأشجار وأبراج الحمام، وحف ممشاه بأشجار البوانسيانا والجازورينا كان اسمه «المملوم» ولا أعرف لماذا يضيفون لقب «الباسل» ليقترن دائما باسمه قبل أن يسبقه لقب «الباشا» ويذيّل بأنه «آل منازع».

كـان لملوم باشـا منازع يجلس دائمـا فـي تلك الشـرفـة، ويدخن أرجيلته وتحت قدميه يجلس على البساط شيخ كبير يَدعى «أبو شريك العيـادي» كان دليلاً لقوافل منازع الكبير، ومعه يجلس رجل آخر يسمى «مبارك العبد» يقال إنه من عبيد عيلة منازع، في غرفة الاستقبال كانت هناك تلك الصورة التي ظَلَلْتُ أحدق فيها ، ثلاث فتيات بشرائط ملونة، بزي مدرسي موحَّد، وكان هناك ولد يقف منفردا يداعب عرف مهرة صغيرة في صورة أخرى، وكانت «النجدية» تجلس في البهو على سجادة كبيرة وتربع ساقيها وسط الوسائد وتنادي على خادمة صغيرة لتناولها علبة الدواء، التي كان بها مرآة كبيرة، وقلم تخط به حواجبها وزجاجة عطر سماوية زرقاء كنت أجمع فوارغها. كان اسمها «لسوار»، تلوك النجدية في فمها دائما اللبان المرْ والمستكة وبضع حبات من القرنفل ومن تحت غطاء رأسها كان شعر ناعم له لون الحناء يغطي طرف حاجبها ممسوكا بمحبس أسفل جفنها.

يتابع الباشا باهتمام كبير النشرات عبر المذياع كانوا يتحدثون عن التصحيح الثوري والإصلاح الزراعي. كان ذلك قبل أن يدخل من البوابة، ثلاثين رجلاً قال أبو شريك «غرابوه» لينقضُّوا على حدائق العنب والتمر البغدادي وأشجار السرو والحور والكستناء التي جلبها من سفراته، وليركضوا خلف الطواويس الملونة والغزالات في الحظائر وامتطى أحدهم ظهر

الزرافة التي كان الباشا قد جلبها من إحدى رحلاته في دارفور. كانت الغرف المسيَّجة بالسلك والتي تحرسها الكلاب قد نهبت تماما قبل أن يفيق «مبارك العبد» ويطلق من خرطوشه بضع رصاصات طائشة، أبو شريك ظل يطارد الصبية بعصاه ويركض وراءهم وهم يقتحمون مشتل الورد النادر، وعبقات الياسمين قبل أن يجلس جوار الحائط يولول «الناس اللي تنفع وتضر، غابوا وراحوا يادنيا وين» ويحلف برأس الجد منازع الذي كان يخيف الضواري في أرض الهيش أنه سيؤدب الغرابوه الفلاحين، دود الأرض. الباشا الذي كان قد نظم كل شيء ليصلح لاستقبال مولانا إذا رغب في الخروج للقنص، وليصلح لحياة ابنة من بناته كأميرة مثل ابنته «سهلة» التي هي أمي. كان قد دخل وأغلق الأبواب بإحكام وأمام صورة الجد منازع جلس يتأمل خريطة الإقطاع الممتد على حواف النهر الذي وهبه مولانا للقبيلة، كي يؤمِّنوا سير القوافل من بركة الحاج على أطراف القاهرة حتى غزة شمالا أو القصير والقلزم جنوبا من بعض القبائل التي تنتهب كل من يمر بالقرب من وادي القبباب على أطراف جبل الطور، فرمان وكالة حراسة القوافل النيلية مازال على جدار غرفة الصالون الفخم الذي استقبل فيه سعد باشا. ومولانا المعظَّم، والبارون إمبان، والأمير عبد المحسن، والأمير فيصل آل سعود، حيث تدراسوا صلات النسب القوية بين قبائل «شُمَّر» وقبائل

عنزه، وقبائل بني سليم، كانت هناك صور كثيرة تغمر الجدران، ظلت صورة هند وهي على فَخْذَيْ مربيتها وحولها سهلة وسقاوة، تجاور صورة أو لوحة ضخمة لرسام قالوا هولندي وأحيانا فرنسي كان اسمه «بييركام» رسم جلسة سمر بدوية، ترقص فيها الحجالة مغطية وجهها ببرقع، وصف من الرجال يصفقون لها، وهوادج على جمال قافلة تبدو خلف الصفوف بعيدة، بجانبها صورة الولد الذي يدلل مهرته هذا الولد كان اسمه «نافذ» صار ذلك الخال البعيد الذي أرسله الجد للوم ليتلقى علوم المحاماة في باريس، لكنه أرسل إليهم صورة عرسه من كاليفورنيا أو نيوجرسي مع بطاقات التهنئة، وصورة لزوجته اللبنانية التي افتتح معها محطة للبنزين بعد أن تقاضى بتوكيل بيع كل ما ورثه، وكل عدة سنوات يرسل إلى أمي بعض الصور، كان آخرها لابنته التي اسمها «صوفي» محدثا أمي عن أنه يناديها «هند» لأن المرحومة تأتيه كثيرا وأنه لا يستطيع أن ينسى أنه تسبب في كل ذلك. أمي التي اكتفت بالصمت لم تعلق على أسئلتي عند تلك الجملة الأخيرة، أطبقت الرسائل وتنهدت وبقيت «هند» تأتيني لتداعب شعري وتموء.

في البيت ذي النوافذ العالية الذي تمر عليه المراكب كان الزجاج الأغبش يكشف النهر من جانب ويكشف شارعا ضيقا مليئا بالمحلات والضوضاء، هنا ستكبر امرأة صغيرة وتحاول أن

تحب وستجلس بجانبها أمها في الفراندة وتراقب حركة القوارب وتحت قدميها خادمة صغيرة تلمّع الصور التي رفعتها عن الحوائط القديمة، وتسمح لشرودها أن يحط على التابلوه الغامض لوجوه ملثّمة وَصَفْق رتيب يخرج من الإطار ليتغنّى بمحاسن المرأة المنتقبة التي تروح وتجيء أمام الرجال كأنها طيف، وحين تفيق من شرودها أمام اللوحة ستتحدث عن بيع حديقة الموالح السنوي وأسعار المانجو والبرتقال، كان الذي بقي لها من للوم باشا ذلك البيت، بيت النجدية، وحديقة واسعة وعدة قضايا مع الإصلاح الزراعي، فالأرض التي تم تقسيمها على الفلاحين بعد تلك الغارة على بيتهم تحولت إلى مستعمرة كبيرة يقطنها أكثر من مئتي أسرة وكان من الإستحالة إخراج من باعوا واشتروا وتوارثوا، رغم أن أمي لم تكف عن متابعة القضايا بينما كان أبي يبيع آخر قراريطه ثم يكتب مذكرة مطولة إلى مولانا الملك فيصل بن آل سعود ليؤكد له أن قبيلة بني سليم التي وقفت بجانب أخوانها من شُمَّر وعنزة قبل الخير حين كانت الجزيرة تنتظر محمل الحجاج، وأنها فتحت مراعيها لإخوانهم عبر أكثر من القرن، آن لها أن تعود إلى مضاربها في نجد، وأن يُعْمل حسابهم في الخير الذي عمَّ وفاض، وأنه يملك أكثر من مستند يؤكد أصوله الحجازية إلى جانب عدة عقود للتحالف في السَّراء

والضراء وقّعها سعود الكبير أو نوري بن شعلان شيخ مشايخ قبائل الرولة التي تسكن شمال الحجاز حتى نهر الأردن، وألحقها بعدة صور باهتة لجدّيْه الشافعي ومنازع وهما يلاحقان الغزالات في العلاقي والقلزم. ومرابط خيل وعبيد يحملون على سواعدهم الطيور الجارحة وتحت أقدامهم رماد القهوة ليثبت بذلك أصالته، ثم ذيّل تلك العريضة بحوالي ألفي توقيع لأفراد العائلة لكنه رغم ذلك لم يتلق ردا عليها.

وظل يروح ويجيء من السفارة إلى الخارجية مقدما مذكرة عائلته، مستأذنا السلطات في الهجرة أو العودة إلى دياره. ثم اكتشف بعد عدة أشهر استحالة ما يطلب وأن أحداً لن يلتفت إليه، ففرك أصابعه التي صارت أكثر توترا والعمة «مزنة» تبط له خبز الشعير على الرماد وتحدثه عن عزه ودلاله وأن جده الشافعي كان يصهل بفرسه من العلواية حتى أرض السبخ والسودان ولا يستطيع أحد أن يقف بوجهه، أبي الذي كان يردد فاركا مسبحته:

ولم أر مثل الهم ضَاجَعَهُ الفتى

ولا كسواد الليل أخفق طالبه

ظل يراقب قراريطه التي حوطها البرامسوة والغرابوة وأولاد مزينة وآخرون، لم يعد يعرفهما بعد أن حوطوها بأسوار طينية

وبنوا فيها تلك البيوت الواطئة وشقوا بين أبوابها المداخل والشوارع، ظل يطوف بين تلك المداخل الضيقة يتفقد شجرة كافور، كان قد زرعها في أحراش أرضه، أو توتة خليج الشافعي وهم يخبطون في جذعها ليستكملوا امتداد الشارع الرئيسي الذي يصل هذه البنايات بالأرض المسفلتة قبل أن يزيلوا اليافطة التي كان مكتوبًا عليها «ربْع منازع» إلى «عزبة التل» بينما عمتي «مزنة» مازالت تجز في وبر ناقة وحيدة وتصنع من وبرها تلك العباءة التي تحاول منذ عشر سنوات الانتهاء منها حاكية له مجرودة الشافعي أو منازع أو محجوب الكبير قبل أن يلقوا به في جوال إلى النهر مستبدلة الاسم الذي في بداية المجرودة على هواها، كانا مازالا جالسين في بيت الشَّعر يتحدثان عن المهاري التي ربطها في دوار البيت وعن كونها لم تخصب بعد ولم تنتج سوى تلك المهرة الصغيرة التي لم يخترلها اسما، ورغم كل الجهود التي بذلتها العمة «مزنة» في متابعة مسألة النتاج هذه، فقد توصّلا في النهاية، وهما جالسان على فرو الضأن في وسط الدوار أن الخيل مثل النساء، ومثل الدور الجديدة، فيها الشؤم وقدم الخير، ويبدو أن كل الذي اشتراه أبي لم يجلب الخير الذي ينتظره، خصوصًا وأن الذين يأتي بهم «سرور العبد» ليتفقدوا المرابط وهم يهفون بعقالهم ذات اليمين وذات اليسار، يتحدثون عن المراعي الألمانية والمزارع البلجيكية وكاتلوج جياد العائلة

المالكة البريطانية ومزادات الخيل في اكسفورد ولندن، كانوا يرونْ مُهرات أبي لا تستحق عناء المشاهدة، ويكتفون بالاندهاش لأن هناكِ قبائل عربية مازالت تحتفظ بأنسابها وسلالات خيولها في هذا الوادي. أبي الذي كان مستعدا بصوره ومستنداته وبكارج القهوة وعريضة المطالبة بالعودة إلى الأراضي الحجازية لم يجد من يستجيب له سوى هذا الذي يلقبونه بالأمير «لُبَدْ» سيأخذ أبي من على فراء الضأن بجوار مرابطه الخالية ليشاركه رحلات قنصه وملفافه باعتباره «بركة» أو خبيرا في صيد الجوارح، سيرحلان معا في رحلة طويلة من جبال الألب ليصطادا الشواهين البيضاء حتى جبال سنقار في أوزبكستان أو تركستان وأحيانا أطراف كندا واستراليا، أبي الذي سره كثيرا ركوب الطائرات وكان يملك مهارة في احتساء القهوة وتقليب النار وله عينان صغيرتان حادتا الإبصار وقادرتان على معرفة الطيرة وعمرها وأصالتها من النظرة الأولى، بل إنه بدا خبيرا في كل الجوارح ومواسمهاوأقطارها وأكثر خبرة في جبر الريش إذ انكسر للطيرة واحدة أو أكثر، يستطلع أرض الملفاف ببصره الحاد ليتحاشى أثر الهوام، وكان قد جاس أرضًا كثيرة، وباع قراريط أكثر، ليركب عربة مصفحة جيب قديمة ويركبُ معه سرور ومبارك من وادي النطرون والعلمين إلى وادي الريان وبحيرة قارون، قضى أياما طويلة من حياته يطارد فرخات القش والطرشون

منتظرا أن يسقط في ملفافه عدة شواهين ليعيد بها أمجاده بعد بيعها بعدة آلاف، ولم تسقط في ملفافه سوى الحباري والجرابيع، كان الصيد مع الأمير «لُبَدْ» في تلك السفرات ليس شركا بائسًا على ظهر حمامة - قد يقع عليها طائر ما يحلق كفريسة ويسقط مخلبه في لفافة الشرك فيركضون نحوه ليطوقوه بعباءتهم - بل معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاسلكي والبنادق الآلية ويحدّدُون مواقعها بالرادار لذلك اكتفى أبي بالتعامل مع الموقف ليس باعتباره صَقّارًا بل «خبير جوارح» يفرك مسبحته ويقول إن الأبيض من الطير يسر العين، والأسود شرس، والأحمر صَيُودٌ، والأخضر في الشواهين هو أردأ الأنواع، والنداوي يصلح للقنص*، وقد يحكي لهم عن الجد منازع الذي اصطاد القرود والنعامات من أرض السودان، أو أنه كان للجد الشافعي صقر سنقاري عمّر معه عشر سنوات كان يسميه «القنوع»، يكفون قهوتهم وهو يتأمل القاعة التي ملأها الأمير «لبد» بكل الجوارح على اختلاف ألوانها وترك لعبيده مهمة مَلْء حواصلها بالطيور الصغيرة وتنظيف مخالبها وتدريبها على مطاردة الغزالات.

بعد أن عاد أبي من تلك السفرة الطويلة علّق على بابه لافتة باسم الشيخ «مطلق الشافعي السليمي» خبير خيول وصقور،

* القنص: صيد الغزلان

وطبع عدة كروت ليعطيها «مبارك» لضيوفه الذين يأتون إلى صَيْد الغزلان من وادي العلاقي بعد أن نصب وتدا وعلق في طرفه فرخة ريش وبعض حباري وحمامات برية في قفص، وصار يتحدث أكثر عما يليق باسم العائلة وعن مشروعات إعادة أمجادها، كالتفكير في عقد مجلس دائم لها وأيضا التفكير في إنشاء جريدة باسم القبيلة يكون شعارها «البداوة أصل الحضارة».

# 4

جدي لأمي وأبي ليس له صورة، كان اسمه «يونس» كان أخا للشافعي ومنازع معا ، ولد هذا الجد في بر الشام بعد الهجج يقول أبي استنجدنا بالشريف عبد الله، وتقول أمي بل بنوري ابن شعلان سيد قبائل الرولة، كانت «خيّالية» التي حاكوا عنها المجاريد تهدهدني العمة «مزنة» على وركيها وهي تهزج بها

ما انك للى يصيد عويل
ولانك ثوبة للرعيان
انتي سلالة من حرٌلسيد
جداد منسّب للشجعان*

كانوا قد ألقوا بها في النهر للتمساح حتى تظل مهرة أصيلة ولا يمتطيها فلاح، حتى ولو كان «عباس الأول» ابن مولانا المعظّم، يقول أحد أعمامي، كانت كتائب عباس تركض وراءنا بالهجن وقد شردنا بالنساء في الصحراء حتى وصلنا إلى الخان،

* أنت لستِ صيدة ولا غنيمة للرعيان أنت من سلالة حرة وأجدادك أنسابهم للشجعان

عمة أبي التي لا أعرف اسمها ستقول إن هذا الجد الذي هج بنا كان اسمه يونس، وأن الوالي أرسل وراءه من طعنه في ظهره عند الخان ولكن هناك روايات أخرى تقول إن «سطام» وهو ابن عم شقيق له هو الذي طعنه في ظهره، فسموا ذلك الموضع «خان يونس» أي المكان الذي تمت فيه خيانة يونس، وأنه فعل ذلك ليتولى مشيخة قبائل العربان.

يونس هو الي أقسم مع «منصور المزيني» شيخ قبائل «مزينة» على أخوّة الدم في بر الشام، فظلوا عُقُودًا يستبدلون الزيتون والزيت وقطع الصابون الحلبي بحرير ودبيق وشعير أرض القبط، ويقال إن للموم الباسل هو الذي أسكن قبائل «مزينة» في دواره حين هجّوا من اليهود وقالوا «نحن أصحاب عهد يا شيخ العرب» فنصب لهم خيمة قرب مضيفته ولما ضاقت بهم، بنوا بيوتًا طينية وأحواشا في ربع منازع وظلت جمالهم تروح وتجيء في قوافل الحجيج ومواسم الحصاد ورحلات التجار.

حين تمر العمة فاطمة المزينيّة على مجلس أبي تقول العمة مزنة «الضيفة»، الضيفة قّالت، الضيفة راحت، الضيفة قعدت، وما عادوا ضيوفا، صاروا جيراننا، حين ندق السامر لكف العرب تأتي العمة فاطمة لتضرب بالعلم* وتهزج.

* نوع من الغناء البدوى

عـذرا منسـوبة وتخـيـل
تخف الشـايب والشـبـان
وعـيـونك جـوز غـنداريات
يهـودي صـابغـهن بألوان

وجين يلطخن وجوههن بالنيلة تأتي العمة فاطمة ومعها أختها مريم لينقرا طبول الحداد تنوحان مع جداتي.

بوابتـه يام السبع عـلامـات
حـيـغلقـوك اليـوم بالضلفـات

تأتي العمة فاطمة لتصحن الكحل الحجري والشبّة والمستكة، وتتحدث عن ديار عنزة؛ وأرض مزينة، ومرابع الحويطات وتختم الحكايا بأن تقول «الله يرحم ناسنا وناسك كانوا جَواد وأهل مروءة».

العمة فاطمة كانت صديقة النجدية الوحيدة، فحينما جاءت النجدية من كفر الزيات على هودج وقافلة من الجمال كابنة عرب حقيقية، أطلقوا لمقدمها الخرطوش طوال سبعة أيام، اكتشفت النسوة أن بنت آل الجبالي النجديين الأشراف إبنة حضر، وتعرف كيف تخطُّ حَاجِبَيْها بالقلم الأسود، وتسف النشوق من منخار حاد طويل، ولها عينان مكحولتان بالإغواء. كان للوم باشا

* عذرا: عذراء، منسوبة، لها نسب كريم،
تخف: تسبى العقل، غداريات، آنية مستديرة.

فخورًا بامرأته، فرغم أنها مهرة أصيلة، لكنها لم ترتد البراقع السُّود، وتخرج من غطاء رأسها خصلة الشعر الناعمة وتعلّق على مفرق جبهتها التعاليق المذهبة كأميرة تركية، وتعرف كيف تصنع «أبرمة الحمام» و«الترلي»، وتحشو الضأن بالزعتر والفستق، وفي صينية القلل الفخارية تضع أوراق الكافور، وتذيب في الماء رائحة الورد المقطرة، وتدس بين الملابس أوراق الحناء.

كل ذلك كان مبهرًا وسط البيوت الطينية الواسعة التي مازالت تفت دقيق الذرة في اللبن الرائب، وتسكب عليه العسل الأسود كقمة ما يعرفون في فنون الطبخ، ولم يكن سوى الضأن وفتيت الخبز للضيوف وأهل المربع، «النجدية» التي وجدت في الجدة «فاطمة» الإهتمامات نفسها، تشاركا معا في تعبئة عصائر المانجو بعد تسكيرها وإغلاقها بالشمع، وعمل مربى اللارنج التي يتحاكى بها النجع كله، العمة فاطمة المزينية هي التي تفرك «للنجدية» ظهرها بمفروك الكافور وزيت الزيتون وتعالج كل الأوجاع تقريبا، لذلك ارتبط اسمها باسم «سقاوة» تلك التي تقف عن يمين انشراح في الصورة «ممتلئة» أطول قليلاً من سهلة، أقل جمالاً من «هند» وأكثر من «سهلة»، لم يقولوا على «سقاوة» مسكينة رغم أنها رحلت أسرع وعاشت سنوات طويلة، تسقط باردة الأطراف متقلصة الملامح رغم أنهم علقوا

لها حجر الياقوت عند مفرق رأسها ليذهب وجع الرأس وألبسوها الحرير الأخضر كي يهدأ بالها وتذهب الأرواح الشريرة، وبحثت النجدية في كل النجوع، لتجد حجر «الدر» الذي يسكن القلب، ودقوا لها سمكة خضراء على صدغها بالوشم، وشرّطوا أعلى حاجبها، لكن «سقاوة» التي تتحول من قطة وادعة إلى جريدة مطروحة على الأرض فاقدة للحياة، كانت لا تفارقها تلك التشنجات ظلت تسقط مرة بعد أخرى، ورغم أنهم حرّموا عليها دخول المطابخ والتحرك وحدها فقد سقطت ذات مرة على حديد الفراش ومرة على قصعة النار، ثم أخرى على صوان البكارج قبل أن تسقط سقطتها الأخيرة فوق عامود البلكون الذي يشبه القلة الفخارية. تحلقوا حولها، كان الدم ينزف والكلوب الذي في سقف البلكون تحط عليه فراشات كثيرة وتطير، وبأجنحة لها رائحة شواء الضأن.

العمة «فاطمة» هي التي تعرف تفاصيل الحكاية التي أخفوها كثيرا، ربما كانت جالسة مع «النجدية» حين سمعت صوت الباشا يقول إنه مجرد كلب، وكانت «سقاوة» ممددة بسيقان بيضاء وملقاة على الأرض، وكانت عينا «سهم» توغلان في ثنايا الثوب الذي انكشف لسيدته، «سهم» الذي كانت «انشراح» تلقمه أحد ثدييها وتلقم الخال «نافذ» الشق الآخر، و«النجدية» تقول إن لبن العبيد يصلب حيل الرجل، على عكس

البنت التي لا ينبغي أن ترضع أبدا من عبدة. «سهم» الذي كان يركض كجرو مع الصغيرات اللاتي في الصورة، وبينما أكوام القطن تُعَبّأ في أكياس ضخمة وترص في فناء بيت «النجدية»، وهم يتحدثون عن أسعاره، كانوا يقفزون جميعا من فوقها وكانت ساقا «سهم» النحيلتان تنقران مثل قرود الأرض السبخة، وحين يلعبون لعبة الاختباء كان دائما يأتي بسقاوة من مكامنها، وحين تتدحرج بين الأجولة مختفية يمسكها من ضفيرتها، هذا قبل أن يكبر ويقول لكل الصغيرات «يابنت سيدي» ويخفض عينيه قبل أن يمر بهن.

ولكنه ظل رغم ذلك يروح ويجيئ بين الفناءين، فناء البيت وفناء المضيفة أو مجلس الرجال، يدخل ويخرج من قاعة المطابخ يحمل بكارج القهوة وآنية الطعام على رسغه، ويمسك لـ«نافذ» مهرته حين يمتطيها ولا يظهر في الصور، وحين أسأل عن شكله سيقولون باختصار «عبد» من عبيد عيلة منازع، ربما له ملامح «انشراح» أمه أو «نوَار» أخته، أو ملامح أخرى لا يحبون تذكرها، يقولون إن له اسمًا آخر لكن الباشا هو الذي أطلق عليه «سهم»، لأنه كان يستعيض به عن كلاب السلوقي في رحلات صيده، يركض وراء الطيرة التي يسقطها الخرطوش، ويأتي بها قبل أن تسقط علي الأرض. «فاطمة» المزينية ستقول إنه كان

جاثيا فوقها حين انتزعه الباشا، يبكي ويقبّل ساقيها اللتين انكشفتا معتقدا أنها ماتت، وعلى الرغم من أن «سقاوة» كانت غائبة عن الوعي تماما ويحدث كثيرًا أن تتصلب وتقع وتصبح في برودة قطعة معدن، فإن الباشا رفعه باتجاه الفراغ قبل أن تلتهب النيران ويغم البيت رائحة الضأن التي تشتعل على الخوازيق.

ظلت العمة «فاطمة» التي تجلس بجوار «النجدية» تروح وتجيئ، تسحق البن والهيل والحبهان، والباشا يجلس في تراسه وثمة ضيوف أكثر أهمية، يفرش لهم الممشى بالسجاد الأحمر، ويتحدث عن مولانا الذي يقنص في أنشاص أو قارون، أو وادي الريان، وتراقب «هند» وهي تسند رأسها إلى فراغ البلكون و«سهله» تلعب بعرائس قش وقطن مع خادمات صغيرات، مر زمن طويل صارت العمة «فاطمة» لا تغادر بيتها ولا تجيئ لتقول لأمي «الله يرحم الغاليين» وصار أبناؤها الكثيرون إذا مررت عليهم لا يعرفونني وكنت أمر فقط على بيتها فأراها محنية بثوب مطرز، وفي وسطها نطاق أحمر، وفي سبالتها مفروك المريمية وصارت تتسند على عصا غليظة، وحين أمرُّ ستتطلع بعينيها الضيقتين منادية على قفزات قدمي «يابنت شيخ العرب ياأم الحرير مقصّب».

«يابنت شيخ العرب يام الضفير معطّر».

أنظر إليها و«نَوَار» التي كفت عن حملي وصارت تسير جانبي تاركة لخطواتي أن تسبقها قليلاً من باب الإحتشام، هي التي تقودني لأسلم على «ريحة الغاليين». كانت «النجدية» قد ماتت ولا أعرف هل كانت «هند» في البيت المظلم أم لحقت بها.

بعد عدة سنوات أخرى كانت البيوت الطينية المتلاصقة لآل مزينة قد تحولت إلى مبان مصبوبة بالأسمنت والحديد وتحت منها بعض دكاكين للبقالة والخردوات، وصرت إذا مررت لا يناديني أحد. فقط أشم رائحة المريمية المفروكة وَحَبِّ الهيل لم تعد فى سيَّالتها، وأترحَّم على العمة فاطمة.

# 5

«انشــراح» التي في صـورة «هند» بثـوب قـصـيـر وبنطال منفوش، سمراء، عفيـة ولهـا صوت فشلت «النجدية» أن تجعله أقل ضجة، يقولون إن الجد منازع اشترى أمـها من مكان يدعى «ود مـدني»، كـان ذلك عندمـا كـان عـائدا مع قـوافل الصـمغ وريش النعـام والأخـشـاب المعطرة. كـانت القـوافـل التي تمشي جمالها معقوف على متنها ذلك الحبل الطويل الذي يمسك رسغها صف أطول من الرجال والنسـاء والصـبـايا مـضطرين لإستكمـال المشي بأقدام متعبة متورمة تحت شمس حادة ورمال ليس عليـها أثر شيء سوى هيـاكل جمال وضبـاع وبشر نفقوا في رحلة ما في الطريق، وكلمـا تـوقـفوا فـي مـحطة، كان عليـهم أن يتـخفّفوا من حمولتهم حتى تصل إلى البحر بخسائر أقل، عـارضين البضـاعة بأسعار بَخْسَةٍ، الجد منازع التقط الكثيـرين وأسكنهم في ربعه، أسفل التلة العـالية وسماهم النـاس عبيد عـيلة منازع. «انشراح» التي تسـكـن هناك حيث بنى «مبـارك العبد» الآن دواره، وصـار له مـضـيـفـة واسعـة وعـربة لاندروفـر وحول بكارج القـهوة تتـحلق

دائرة من الضيوف يقول بفخر: «كوايتة»، «سعوديون» يترجلون بعدها في عربات أكثر فخامة ليلاحقوا غزالات «أيله» و«العلاقي» في رحلات قنص يصبح فيها عبيد عيلة منازع أدلّاء مخلصين، لا تستطيع العمة «مزنة» إذا مرت هناك أن تتحدث بجرأة أكثر عن «حبايبنا وخدامينا» مع أنهم ما زالوا يقفون لمرآها وحين تمد يدها فسيأتون واحداً بعد آخر لتقبيلها، ويقولون لها كما كانوا دائما «يابنت سيدي».

«انشراح» التي تسكن هناك الآن، وإذا مرت مهرة لن تعرفها لأنها لم تعد تتذكر أحداً ولا حتى أحفادها الذين يلعبون حول البيت. من يوم أن أخرجوها من البيت المظلم كانت عيناها المليئتان بهذا النعاس والإحمرار كليلتين تماما وغير قادرتين على التحديق سوى بهذه الإغماضة، الأطفال الذين ينادونها ياجدة سينظرون لمهرة بحذر وهي تعبر الطريق الترابي خلف التلال الخفيضة. يقولون إنها كانت تحزم وسطها بهذا النطاق المتسخ الذي تربط فيه مفاتيح الغلال وغرف القدور والخزين تفتح صدرها لتظهر عظمة ناتئة لتكشف نحولها على تلك العظام البارزة. «الشناف» المعلق في الأنف أخذ من لحمته الكثير وتدلى فربطته من الجانبين بخيط يرفع فردتي حلق أكثر ثقلاً تركا شقًا واسعًا في موضع القرط، تعلق الخيط الذي يرفع الثقل عن الأذنين فوق رأسها من تحت الغطاء سيبرز الخيط المعلق

بالدبابيس الملونة، تظل تروح وتجيئ محدثةً بخلخالها الكبير تلك الضجة مع شخشخة المفاتيح وصوتها الهادر في الخادمات آمرة ناهية. تركت لها «النجدية» عدّ أجولة الطحين، ومراقبة نظافة الحجرات وتجهيز حوائج المطابخ، فهي التي تراقب البيض الذي فقس، والبطات التي يجب ملء حواصلها بالحبِّ، والبهائم التي جف ضرعها أو امتلأ، تكتفي انشراح بأن تجلس تحت قدميْ سيدتها وهي تدلكها بزيت الخردل والماء الدافئ وتقول «ياستنا.: عبأنا زلعة سمن» و«ياستنا فتحنا زلعة جبن»، و«ياستنا كم كيلة سنعجن الليله؟».

«انشراح» هذه هي التي كان عليها حمل ذهب النجدية بعيدا عن أعين العسكر الذين هبطوا، وفي أيديهم قائمة الأسماء، التي كانت أرض الباشا تتحول بها إلى إقطاعات صغيرة لا تتجاوز الفدّانين، يبنون حولها الأسوار ويشقون بينها قنوات السقي، وثمة عسكر آخرون كانوا يحمّلون المهرات والنوق والنعامات والغزالات الصغيرة من الدوار، مقسمين أرضا كان يطلق عليها «إقطاع البدوان» إلى رقعة شطرنج، تاركين حديقة آل الباسل خالية تماما بلا جوارح أو مهرات أو غزالات مسيجة في الأقفاص، النجدية التي جمعت كل ما على صدور بناتها من حليْ وكرادين ذهب، وخلاخيل مجدولة، ونبائل وصدريات من الذهب، وصرّتها في ثوب خلق، وربطتها حول وسط انشراح

لتجلس هناك على خليج منازع أسفل أثلة فردتْ فروعها المائلة على الخليج، بعد أن حمّلتها بصغيرتها «نوار» إمعانا في التضليل، ومن وسط خرق الصغيرة كانت جنيهات ذهبية مدسوسة في اللفائف على حجر عبدة تهزج وهي تحمل صغيرتها، سيقولون للنجدية كل مرة «العبد يبيعك كما تبيعه»، لكن انشراح كانت تعود كل مساء محمّلة ببضعتها لم ينقص منها شيء، وظلت تفعل ذلك كل مرة كلما عبرت مصفحة هنا أو هناك.

«انشراح» هذه التي كان يسمع صوتها من ثاني دوار وكان لحركتها العنيفة في البيت هذا الضجيج لم تعد تتكلم على الإطلاق، قالوا السكتة وقالوا الحزن، حدث ذلك على فترات طويلة، كانت رائحة النار التي أمسكت بتلابيب «سهم» لتحترق معه المضيفة بأكملها قد وصلتها متأخرة ولم يفسروا لها كيف أبقت النار على ساقين مُقَيَّدتَيْن، في جثة محترقة؟!، وكيف حدث هذا؟ ظلت تدب من غرف الخبيز إلى قاعة القدور إلى صالة الغلال لكنها لم تتكلم حتى عقفوا «هند» من ساقيها وأوثقوها في الفراش قالت «أنا مع بنت سيدي حتى يؤون الأوان».

ثم حملتها إلى المبنى الذي في آخر ممشى الحديقة محفوفًا بأشجار ليمون وأبراج حمام قديمة ومهدّمة،يتجمع فيها الكثير

من النفايات والقش وبقايا فراش قديم كنت أستطيع التكهُّن بما فيه، كان بيتا قديما من غرفتين بالطين والتبن وقاعة في وسط سقفها فتحة دائرية بين ألواح الخشب، من الفتحة كانوا يدلون سلال الطعام وبعض الإحتياجات الأخرى.

«انشراح» التي في الصورة تحمل هند على حجرها ظلت تحملها في هذا البيت المغلق داخل القاعة التي في سقفها تلك الطاقة، كان هناك مضخة ماء تجلس تحتها «هند» كل مرة يتلوث ثوبها بالبول أو البراز، تدق «انشراح» المضخة ليغمر الجسد الماء الذي يستكين ويتكوّر في بؤس. الماء الذي ينسكب على الأرض يخرج من مجرى تحت تجويف الحائط إلى الخارج حيث ينصرف تحت أشجار الليمون. من فتحة السقف كان يمكن لهما التكهُّن بأول النهار وآخره ومواقيت إزهار البرتقال وطنين البعوض صيفًا وانسكاب المطر على السقف ورائحة الماء الراكد تحت الأشجار. الغرف التي أغلقوا نوافذها بالطمي والقش صارت مصمتة لا يُسمَع منها شيء ولا يدخل إليها شيء، ضوء النهار وحده هو الذي كان يدخل من فتحة السقف، وكان بأعلى كل غرفة كوة صغيرة تجاور مرائن الخشب في السّقف تجدد بعض الهواء لكنها لا تدخل شيئا، تقرفص هند على الفراش وتظل عيناها باتجاه الكوة التي عرفتها الفئران والقطط والعصافير الصغيرة وبعض الخفافيش والعناكب، بعد أن بكت وانخرطت

كثيراً في النهنهة والصياح ونبش الحوائط بأظافرها ويد انشراح العفية تمسك بها في تلك النوبات حتى تمر ثم تضع رأسها على حجرها وهي تتلو الرقى والتعاويذ وتعيد تضفير خصلات الشعر التي كانت مثل «سلاسل الذهب» كما تقول «النجدية» في ضفيرة طويلة، بعد مدة استكانت للصمت من جديد والذهول عن نفسها.

«انشراح» قالت إنها في الآونة الأخيرة كانت مثل النسمة بعد أن كفت عن لطم خديها وخبط رأسها في الجدار، كانت تنهمك فقط في مراقبة الخارج بكل حواسها، تتلصص على الحوائط لتتسمَّع صوت صحن البن الذي كان يأتيها عبر دقات لها إيقاع ثابت تتشمَّم رائحة الضأن التي تشوى في مكان ما محدِّثة نفسها أحيانًا أنهم الآن في المطابخ يوقدون النار تحت الأواني الضخمة، وأن النجدية مازالت تُخَبِّئُ في صدرها علبة النشوق، تراقب من فتحة السقف «نقرات الظباء» وهي تدخل نجمات قليلة متناثرة تركض في السماء، تعرف بمرورها على هذا الموقع أن سنة جديدة عبرت، وهي ما تزال تتحسس الجدران وتتسمَّع ضجة ما، مواء قط، رفرفة أجنحة طير على الأشجار، حفيف خريفي تسقط له أوراق جديدة، لم تستطع أن ترى تجاعيد وجهها ولا الشعر الأبيض الذي غزا فجأة مفرقها، حين تأخذها «انشراح» على ساقها وتضفره وهي تهزج:

«الصبر ماقَضَي حاجات ملّيت، والرجا بابه قَفَلْ»*.

كانت تشعر أكثر بهذا الضيق الذي يعيدها إلى دوامة البكاء ثم تعود لتصبح ساهمة شاردة تلاحق أشياء مجهولة في العتمة، متأكدة أن الرجاء بابه مغلق مثل الحوائط المصمتة، وحتى لو خرجت فإن ثمة عزلة أحكمت سياجها ولم يعد إلا التحديق في الفراغ، لم يعرفوا هل كانت واعية أن لها طفلة صغيرة تجلس بأستكانة على حجر «سهلة»، هل أطلقت روحها لتتفقدها، سيقولون إنهم رأوها تفتل العجين معهم وأنهم تطلعوا جولهم فماءت قطة ما وخرجت شاردة، بعضهم كان يراها دائما كما كانت، تُسَوِّي الفراش في الغرف، أو تشرب من الماء المعطّر في طرف التراس ثم تتمسّح في قدميْ سهلة وتخرج تموء وتخدش في البسط المفروشة ورغم أنهم كانوا يتهامسون عن أرواح الأحياء والموتى فقد تحاشوا جميعا أن يذكروها، وأن يذهبوا إليها ولو عبر هذه الطاقة الصغيرة في وسط السقف، لأن ذلك فيما يبدو كان سيقلّب عليهم المواجع، كانوا يكتفون بسؤال «نوار» «أمك حلوة يابنت» ولم يسألوا عن «هند» أبدا، وكان يكفيهم أن تطأطئ «نوار» رأسها ليطمئنوا.

الظلام الذي تحدق فيه هذا لم يعد يخيفها، ولا نباح الكلاب في الحقول البعيدة. تقرفص في الضوء الشحيح أو العتمة وتكوم

* صبرت حتى مللت ولم يَقْضِ الصبر لي شيئا، والرجاء بابه مغلق.

حبات الرمل على أرض الغرف التي لم يصقلوها بالخشب تركوها بطميها لتنبشه بأظافرها محدثة خطوطا طولية وتقاطعات شبيهة على الجدران التي كانت بلا طلاء أيضا ولا صقل، كانت طَمْيًا ينفـرط منه الرمل إذا حكَّتـه، وتصنع منه مـعـسكرات النمل ثكنات تمرق بين جـحـورها هنا وهناك، لم تحـاول عـدّ الأيام ولا صنع العلامات، «انشراح» هي التي استطاعت أن تضع علامات مؤكدة للساعة والفصول بالنجوم التي تعبر على فتحة السقف ورائحـة زهر البـرتقـال إذا أزهر، ربما انتظرت الموت لكنهـا لم تحـاوله، كـانت قـد فـقـدت قـدرتهـا على فـعل أي شيء سـوى التحديق ولم تحاول الهرب، كانت مستسلمة تماما محنية على كـومـة رمل أو مـتطلعـة باتجاه كـوة أو مـقـرفـصـة تحت السـمـاء الضنينة التي تعبر من فتحة السقف تاركة للندى الليلي جسدها محاولة استنشاق شيء غـيـر هذا الهـواء الراكـد ورائحـة الماء العطن تحت المضـخـة، الدمـامـل التي غـزت سـاقـيـهـا من تلك القرفصة فشلت «انشراح» في عـلاجها بقشر البصل والرماد، وكان كل يوم تتفتح بثور جديدة ويسيل منها القيح وثـمة سعال مبحوح صار يلازمـها، سيـقـولون مـسكينة وهم يتطلعـون إلى جسدها ويسكبون الماء الأخير لغسل موتها، ولن يضعـوا لها «الصغـيـرة» التي تركض في بيت مللوم باشـا في حـجـرها مـرة واحدة لأنها لـن تتـذكـر ذلك أو ربما تذكرته كـثـيـرا حين كـانت

تتسمّع الجدران الصماء ولا يأتيها سوى ضجة بعيدة تحاول تفسير حركتها، كانت ضجة لامرأة ذات شعر قصير يشبه في تجاعيده شعر ليلى مراد أو أسمهان، وبأنف طويل تدعى «سهلة» كانوا يخيطون لها فستانًا بديكولتيه مفتوح وعقد من اللؤلؤ لتذهب إلى البيت نفسه الذي خرجت منه «هند» لأن الملوم باشا سيقول وسط نهنهة ابنته الصغرى «أنفك منك ولو كان أجدع.. والبنت لابن عمها ولو تخلع عينها، وبنت العرب مثل الناقة الطوع مطرح* ما تعقلها تبرك، ومطرح ما تسيّرها تسير».

وحين مضت سهله حاملة معها تلك الصغيرة التي في الصورة بفستان كروشيه أبيض لم يقولوا عليها مسكينة لأنها لم ترد أن تكون كذلك، على عكس الصغيرة التي كانت تذهب محمولة على أكتاف «نَوَار» إلى مدرسة ربع منازع الابتدائية كان طرف الخيط في يدها صورا غائمة تحاول استكمال تفاصيلها، وكأن ثمة طريقًا كان عليها أن تتعقبه ومصيراً مماثلا مجبرة على تكراره، كانت هند تأتيها كثيرا تحدثها أن تغلق ذلك الصندوق لكنها كانت مُصرةً.

* مطرح: مكان، تعقلها: تربطها

# 6

الإطار الذي كان مُذَهبا أصبح بلون الرمال باهتا ، ومتناسبا أكثر مع فضاء اللوحة التي ظلّت أمها تحملها من بيت «النجدية» إلى بيت أبيها ثم إلى بيت منيل الروضة متخيرة لها في كل مرة موقعا عموديا على مجلسها حيث تسرح في شرود أبدي، تسقط عيناها على صفوف الرجال، والحجالة تتمايل أمامهم راقصة، والقافلة البعيدة تبدو في أفق سرابي محير، اعتقدت «مهرة» في البداية أنه يخصّها ، ذلك الشاب النحيل الذي سكن المضيفة لعدة أشهر ورسم تلك الصورة مسميا نفسه «سليمان» كان يجلس مع أبيها على البساط في ليال صيفية كثيرة يتحدث فيها عن أرض الحبشة وبلقيس وسليمان الذي كان يسمع أسراب النمل وهي تتخاطب تحت قَدَمَيْه، وعن نسله في بلاد الحبشة، للموم باشا الذي كان بين كل مقطع ومقطع من الحكاية يؤكد أن الجد منازع كان أحد المكتشفين الكبار لمصبّ النهر، وأنه يتفهم تماما ما يقول، لكن بلقيس ملكة سبأ كانت تسكن اليمن لا الحبشة، هو لا يستطيع أن يتخلى عن هذا

الاعتقاد. كان «سليمان» أو بيير كما وقَّع لوحته ينخرط في الرسم غالقا عليه الباب متطوحا وسط ألوانه حتى يحل المساء حينها يلبس كما يلبسون الثوب الأبيض والعقال والعمامة الشفافة، فيبدو بياضه الرائق رغم كثرة مواضع البثور في بشرته. ويحتسي معهم القهوة متحدثا عن نظريته في التناسخ، مؤمنا أن دورة لا تنتهي للأرواح تسكن ظل إنسان، فرع شجرة، جسد قطة، كان قد أيقن أن انشغاله بالبدوان جزء من روحه فقد تكون روحه قد تلبَّسَتْ جسد مهرة عربية قبل أن تحل في جسد قرد استوائي ثم استقرت لدى جسده ريثما تتحول مرة أخرى إلى أجساد كائنات لا يعرفها، الباشا كان يعتبره - بالطبع - مجنونا، كانوا قد عرفوا مجانين كثيرين مثله مروا هنا أو هناك، التقى بهم الجد هذا أو ذاك وهم يبحثون عن الذهب في «تلال اللّقايا»، أو الزمرد في جبال البَجَة، يتذكرون ذلك الذي لبس قفطان العريان وظل يجول من رَبْع إلى رَبْع، جاء مع بونابرت، وكان مثل سليمان يصف مجالسهم في لوحات ضخمة، وينام في الخلاء معهم على وبر النوق وجلود الضأن، كان اسمه «دينون» يشارك محجوب الكبير أو يونس رحلات كثيرة بحثا عن أشياء جديدة ليرسمها كالفلاحات أمام أفران الخبيز واحتفالات الأعراس والطهور والموالد.

كانوا يمرون كثيرا، هذا قبل أن يبني الجد منازع هذه المضيفة التي صممها البارون «إمبان» نفسه، كان يقنص معهم ويَجيئ

كثيرا إلى حيث يرقد السمَّان في بحيرة قارون أو يبحث مع رفيقه «دورفتِّي» في «كوم أوشيم» أو «نزلة النصارى» عن مومياوات جديدة، بعدها اعتادا أن يجيئا إلى حيث الجد منازع جاهزا لترحال في طرق لم يعرفها أحد قبله، قرر أن يبني «المضيفة» التي ليست بيتا من الشَّعر ولا حجرة من الطين المعبأة بالدخان، بل بيت عال كما يحب أن يسكن الإنجليز، حجرات مسقوفة بالأخشاب على جدرانها مرايا تكمل نصف الحوائط، ستائر من الحرير والجبردين السميك لتخفف الضوء، سلالم عالية بإطار من الحديد المطروق، قاعة من البُسُط الأعجمية والوسائد المطرَّزة والمباخر، نوافذ مسيَّجة بالأسلاك خوفا من البعوض والهوام، خزانات ملابس مسيَّجة بالخشب، بلكون واسع يشرف على مرابط الخيل من جهة، وحدائق الموالح من جهة أخرى، أمام المبني سيترك مساحة شاسعة من الرمال لتحط الطائرات الهليكوبتر الصغيرة حاملة إمبان أو دليسبس أو دورفيتي، بعد ذلك ستصبح هذه المضيفة هي الطراز المعماري الذي تختاره النجدية بقاعات وغرف أكثر، كذلك كان بيت «هند» الذي لن تسكن فيه إلا لبعض الوقت قبل أن تعود ويغلقوا عليها النوافذ في بيت طين يجاور شجر الليمون وأبراج الحمام الخربة.

«بيير» الذي سمى نفسه سليمان سيعتز كثيرا بأنه سكن المكان نفسه الذي سكنه «دورفيتي»، كان يقول عليه «مكتشفا» بصيغة تحوي الكثير من الفخر. الباشا سيقول إنه مثل الجد منازع مكتشف أيضا، كانوا يمتطون خيولهم ويركضون في رحلات قنص طويلة حضر مولانا إحداها، يصلون بعد أيام إلى قوص أو الريان أو قارون أو جبال الزمرد، حيث يرون قطعان الغزلان والحمير الوحشية والظباء تسير آمنة يطاردونها، فتركض تاركة على الرمال آثارها نقشا يقتفونه حتى صخور وديان الحصى حيث تضيع القطعان تاركة صغارها للقنّاصين بينما تختبئ بين الصخور الجبلية متأملة مصير الصغار التي تحيط بها كلاب السلوقي من كل الاتجاهات.

«دورفيتي» الذي جاء إلى الجد منازع باحثا عن زوج من الجياد الأصيلة ليرسلها إلى فينًا، وزوج من الصقور المدربة على اقتناص الغزالات، سيرافق الجد إلى سنار وجبال الكبابيش ثم بربر وشندي كان يبحث عن زوج من الظباء لامبراطور النمسا أو ريش نعام يصلح لدوقة بروفانس أو حشرات استوائية لمتحف الأحياء في لندن أو زرافة لإثراء مجموعات الحيوانات البرية الملكية في باريس، بينما كان الجد يبحث عن «مسيل الذهب»، ذلك الماء المترب الذي تلمع فيه حصوات متكلّسة يكتشفون بعد إذابة القشرة أنه ذهب حقيقي في شكل حصى، ليس مهمًا ما

كان يبحث عنه الجد لأن كليهما سيبحثان كثيرا ويعودان إلى تلك المضيفة حيث يفترشون في النهاية مضيفة آل منازع المسوَّرة آنذاك بسور ضخم مثل القلاع بُسُطًا عجميةً ورائحة بخور مكي مختلط برائحة شواء وفناجينِ قهوة لا تفرغ، كان ذلك قبل أن يزرع الباشا أشجار الكافور والعَبَل العالية دون أفرع تصلح للتسلق، كي تظل العزلة مبسوطة تماما بين تلك المضيفة والبيت الذي يجاورها ولا يفصلهما سوى هذا السور الضخم، لكن بيير حين كان يمزج ألوانه كان هناك في طرف السور وفي الجانب المتاخم للمطابخ وأفران الخبيز جانب من السور قد تهدم قليلاً بفعل تسلُّق الخادمات ليرين البساط الأحمر الذي يفرش للغرباء حين تحلق طائرة هليكوبتر حاملة معها بارودًا وخرطوشًا ووجوهًا حمراء لا تزيدها الشمس والركض في الأودية الجافة سوى ذلك الاحمرار، من فوق هذا الحائط نصف المتهدم كان الولد الذي صار أبي يطارد الخادمات الصغيرات ويلهث وراء صدر «فرحانة»، أو يطارد «روضة» في حظائر البهائم وعلى أكوام القش، وكن يتناقلن ذلك بينهن، وربما سمعته «هند» ليلاً وهن يتهامسن عن البكارة ومحارم ليلة العرس، «انشراح» التي لا تترك غرفة الكانون ليلة الخميس حيث يتحمَّمن ورائحة النار والماء الجاهز وصوت المضخَّة وتعليق الغيارات على فروع شجرة التوت، والجلوس على القش لتمشيط الشَّعْر كان يعرف

موعده ويترقبه وينتظر فوق السور ثم يقفز وينقض مع خشخشة الماء على الجسد العازي أو على ظهر التي تفبرك قدمها فوق حوض الماء في غفلة انشراح التي يهاجمها النعاس وهي ترفع رأسها محدثة هذه أو تلك «ياالله ياعروسة منك إلها رقبتي اتعوجت.. صبّي يابنت الميّه وقومي الله يقطع سنينكم».

وكان يعود مثلما أتى من على طرف السور حيث تَركَتْ قدماه المتشعلقتان آثارا جعلت من المسألة أكثر سهولة كل مرة وبشكل لا يلحظه أحد، من هنا كان يمكن التكهن أن هند قد فعلت ذلك أيضا، عبرت إلى الشاب النحيف الذي كان يسمي نفسه سليمان ويقطن المضيفة، ويحكي عن القرود وعبيد أرض السودان.

«سهم» الذي كان يتحرك بين العالميْن من المضيفة إلى البيت والعكس، هو الذي سيقول للنجدية إنه يرسم عبيدا مكومين عرايا في مركب يقول إنه شاهدهم في مكان يدعى «هرر»، يرسم سماء معبأة بطيور اللقلق وصحراء عليها هياكل عظمية لجمال نافقة وعدة صقور تطير في أقدامها الخيط الذي تجذبه الجوارح في محاولة مستميتة للفكاك من الشرك، رسم عدة مهرات مستكينة في مربطها كان لإحداها عَيْنَيْ «هند»، ولم

يقل «سهم» أنه رأى تلك الصورة التي كانت فيها «هند» مُمَدَّدة عارية. الذين يعرفون جسد هند كانشراح لن تقول إن الحسنة التي بين ثدييها كانت لهند فعلاً، وذلك الصدر الذي يشبه وردات قرمزية ناعمة كان أيضا لها، في اللوحة فقط كان لها حِجْل فضي كَحِجْل انشراح ولكنه معقود بسلسلة غليظة تسلسل قدميها وعلى ضفيرتها الطويلة كان عقد فل ينحني من الجبهة حتى طرف الضفيرة وكانت نصف مغمضة وبين فخذيها رسم غَبَشْ قط بري ووجه مماثل لقط تماما لكنه يبدو كموضع حرمتها، إذا استثنينا العينين.

ذلك القط الذي كانوا يشاهدونه بعد ذلك يموء ويخدش البُسُط ولا يعرفون كيف يدخل من الأبواب المغلقة وكيف يغافلهم ويخرج وكيف تكون له عيناها وإستكانتها نفسهما وأيضا ذلك النزق الذي تتحرك به. الذين يعرفون «هند» سيقولون إنها كانت تدير الاسطوانة لتتعلم الرقص الإيقاعي، وتجلس وحدها محاولة تقليد صوت فتحية أحمد، وتتلو مقاطع من «ماجدولين» بصوت مؤثر تحت أشجار الحديقة قبل أن يلمحها أخوها الذي يقطن الآن في نيوجرسي ويمزِّق الرواية التي استعارتها من مس «انجيل» ابنة ناظر المدرسة ويلطمها على وجهها فينزف أنفها، ولم تكف هند بعدها عن لضم عقود الفل من الحديقة، وهي تغني «رق الحبيب».

بعد أن رحل «سليمان»، شهدوا حول رقبة «هند» سيرا من جلد الزراف مُعَلّقًا فيه قطعة بيضاوية مثقوبة من منتصفها بشكل دائري، لها شكل عين من العاج ستظل حول رقبتها ولن ينزعها أحد سوى انشراح بعد أن تسكب الماء على جسدها والعطور ويلحفونها بالمناشف ويقولون مسكينة. «انشراح» التي كانت تؤمن بكل التعاويذ السحرية قالت إن الزرافة تتنبأ بالغيب، وكل الكاهنات في أديس أبابا وسنار يضعون سُيوراً من جلدها لتحمل التمائم والأحجبة، وقالت إن العاج تميمة سحرية أيضا فهو جماد ميت يخرج من لحم حي وأن العين حارسة، وعين العاج تحرس المومياوات والأجساد الهالكة في المقابر القديمة، انشراح التي سترى في التعليقة تميمة لديمومة المحبة حتى الموت، ستعطيها إلى سهلة وهي بدورها ستضعها في حافظة قديمة مع صور أخرى وأوراق وقصاصات من رواية «مجادولين» الممزقة.

ستحملها سهلة مع اللوحة التي ترحل فيها قافلة جمال وترقص حجالة ويقف صف الرجال وتضعها في غرفتها أمام الكرسي الذي تجلس عليه لترى منه النافذة عن يمينها واللوحة في الحائط المواجه، كان ذلك بعد أن قال الباشا «أنفك منك ولو كان أجدع» والنجدية تقول له: إنه ليس ابن عمها الوحيد لتعطيه ابنة بعد أخرى. الذين يعرفون «هند» سيحكون أنها

بكت كثيرا وهي تسمع عن ملاحقته لفرحانة وغيرها في الحظائر، وما يروونه عن فاطمة القرومية لكن الباشا سيقول «ابن عمها وهو أولى».. هند التي خاطت لها مدام «كريستينا» ثوبًا منفوشًا بجيبونة وأحضروا لها زجاجة لاڤندر أو لسوار وحذاء بكعب مسمار وسارت وسط الكلوبات التي حملها العبيد وصواني الحناء التي أحاطوها بالشموع وداروا بها دورتين في الأحواش والدواوير المتاخمة لأعمام أو عمات، وكانت الحجّالة ترقص في الأرض المنبسطة أمام المضيفة والتي تهبط فيها الطائرات، والرجل الذي يخرج من الصف الذي يصفق تَصْفيقًا رتيبًا ينحني أمامها بتوسل، وهو يتغزل في الرقبة الطويلة كناقة الجمل والكعبين اللذين يضويان كمنارة، وبرق الشناف المعلق في الأنف مثل هلال قمري:

كعويك شمعات منارة
يضون في دكان نصارى*
ضي جبينك بان شعيله
خدك وشنافك تمثيله
كيف هلال اتناشر ليلة
اتلاقى هو والفجرية*

* يُضون - يُضِئْنَ.
* ضوء جبينك ظهر ومن تحته الخد والشناف المعلّق مثل هلال تلاقى مع ضوء الفجر.

والرجال الذين انتشوا بوجه لم تظهر منه سوى عين واحدة، وخصر يميل على الهازج بالأشعار في تلاحق وطراد بين صدها له بالعصا وميلها تارة عليه متحننة. كان على النجدية وضيفاتها أن يأمرن البنات الأصغر بالانشغال بالعروس بينما تركن أعينهن تلاحق «الصابية»* المنصوبة في خلاء المضيفة عبر الجدار المتهدم في الصبَاح حملوها على هودج مثل أمها وجدتها رغم أن الباشا كان لديه عربة؛ فإنَّ البيت الجديد لا يفصل بينه وبين بيت النجدية سوى دوار واسع وسور، لذا مشوا وراء هودجها مكملين التصفيق الرتيب والأهازيج الغزلية حتى وصلوا إلى هناك، حيث أعدوا لها غرفة مسقوفة بالخشب، والمرايا ومفرش لمنامها بلون ورق الكرنب وكلّه باللّون نفسه، بينما ملأت النجدية أدراج المرآة والخزانات بالشبّة ومسحوق القرنفل ودهن الورد وورق النعناع والكافور والمستكة المفروكة في أوعية خشبية وإلى جانبه زيوت ذات روائح نفّاذة نصحوها بتدليك الأماكن الحساسة بها، وتدليك شفتيها أيضا وألا يخلو ريقها من المستكة واللبان المر، سيتركونها مع فاطمة القرومية، ومع أنهن جميعا كن يعرفنها كما يعرفها معظم الرجال، قد تحكي النجدية أن تلك المرأة قد جاءت إلى إقطاع البدوان وعلى يدها طفلة منذ سنين عديدة،

* الصابية: ساحة الرقص

كانت ومازالت بيضاء وسمينة لها ذلك الامتلاء المتناسق، وسيذكرون أن لها أزواجا كثيرين، كان آخرهم «حلمي الصعيدي» النحيل القميء الذي كان يعمل على ماكينة الطحين، يدلق الحبَّ في فتحة الماكينة، ويقف أمام السير الكهربائي أو أسفله حيث يتجمَّع غبار الدقيق المطحون حيث تنحني كل امرأة لتجمع طحينها منكفئة على الأرض ينشغل هو بمراقبة طُرَحهن وهي تنحل وفتحات صدورهن تتلألأ عليها قطرات العرق. لفاطمة القرومية أثواب دائما مفتوحة الصدر تكشف عن ثراء فاحش يعلو صدرها عقد من حبات مسبحة رخيصة بلون الزمرد يتمازج مع لون قرمزي داكن لفم مرسوم وأسنان مصفرة قليلاً لكنها تثير الشهوة، سيعجبه المشهد بالتأكيد، ويتزوجها وتظل هي تدخل البيوت في ليالي الأفراح حين يتعري جسد العروس وهي تزيل الزغب، وتدق مسحوق الشبَّة والمستكة تحت الإبطين وتشاهد الأماكن المحرَّمة، وهي تنتفها لتصير مثل جلد الأطفال ناعمة وملساء، تحف الحواجب بالخيط، وتكيس الجسد، بعدها تتعرف الملابس الداخلية للعروس مبدية رأيها في هذا القميص أو ذاك، معطية نصائح عن فرد قَصَّة الشَّعرْ أو ضمه بالمحابس، أو فرده بالزيوت والدهن. البيوت الأكثر تحفظا كانت تكتفي بمشاهدتها وهي تجلب معها قمصانًا للنوم من الستان الأحمر، وتأخذ رأيها في بعض الأمور

كحشو حمالة الصدر بالقطن، وشد البطن بالأحزمة خصوصًا بعد الولادات، النساء الأكبر سنا سيسألنها عن أشياء أخرى مثل النوم على هذا الجنب أو ذاك، رفع الساقين وإطلاق الأصوات الأكثر غنجا، ولا تكف هي عن فرك الدخان، ولف السجائر والغمز بحاجبيها. تضحك تلك الضحكة المبحوحة وتصف بيديها تلك الحركات البذيئة.

«هند» التي خاطت ملابسها مدام «كريستين» واشترت لها مس «انجيل» عدة قمصان من جاتينيو وتكلفت بإحضار بدأرة واصبع شفاه واجتهدت في ليلة عرسها في رفع شعرها الطويل بوكليت فوق الطرحة التل وهن يضعن تحت قدميها أوراق الكافور والريحان كي تصبح حياتها الجديدة خضراء معطرة، تّركنها لفاطمة القرومية لتحمل لها الكلوب وتعلقه فوق رأسها تم تضع رأس هند فوق حجرها ممسكة ساعديها بقوة بينما تلف رجلَيْها لتتباعد بين ساقيها لتترك له المجال ليضرب ضربتين فَتَسْقُط قطرات قرمزية على المفرش الذي كان له لون الكرنب، وتكتم هند صرختها. بعدها ستخرجان معًا وتتركانها تبتلع نحيبها وهي تسمع ضحكات فاطمة القرومية وتشم دخانها البعيد.

في الشرفة المسيجة بإطار من الخشب والحديد، ولها باب مفتوح على غرفة الضيوف وباب للبيت، ونافذة غرفة نومها،

الشرفة المستطيلة كان لها بلاطات غامقة بلون التراب، ربما كان لها آنذاك لون آخر، كانت هند تقف متطلعة إلى الكلوبات المعلقة في شجرة توت ضخمة لتنير الفناء، وبعيدا تضوي أنوار معلقة أيضا لبيت النجدية، البلكون الذي تجلس فيه تسف النشوق من منخاريْها وتعطس آمرة بأن يحملوا برام الأرز أو فطائر القشدة إلى ابنتها التي صارت نائية، ملك رجل آخر. بين البيتين تقف للطيور وفراغ ومبانٍ طينية قديمة وصمت ليلي، من المؤكد أن هند وقفت طويلاً منتظرة أن يعود من بيت فاطمة القرومية يستند على الحوائط ولثوبه رائحة الدخان، ولفمه تلك الروائح الغريبة لأفيون أو حشيش أو أشياء أخرى لا تعرفها، وربما انتظرته كثيرا بتلك المساحيق التي ملأوا بها أدراجها، لكن المؤكد أن الخادمات كن يقلن إنه ينام في بيت فاطمة القرومية وأن هند لا تكف عن البكاء، بعدها مشت ليلاً إلى بيت النجدية وهي تحلّفها برحمة الغالين ألا تتركها تعود، وأقسمت أنها ستعيش خادمة في بيت أبيها فقط ألا يردوها إليه، وأنها ربما تموت لو أصروا على عودتها، «النجدية» التي وبّختها وقالت «دلع بنات»، وحدّثتها أن المرأة عليها كل شيء، وعليها أن تحاول معه أكثر لأن كل الرجال يصيبهم الطيش ثم يعودون إلى عقولهم.

فعادت هند إلى الشرفة تتكئ على وحدتها، تواجه الندى الليلي بمزيد من الدموع، تحولت إلى صمت مطلق فنوبات من النهنهة ثم سهمت بنظرة محايدة لعدة أيام تاركة البول والبراز على ثوبها رافضة أية وسيلة لتنظيفها أو إطعامها، حملها إلى بيت النجدية مستندة على الخادمات فسكبت النجدية على رأسها الماء البارد وشدتها من ضفيرتها لتفيق من ذهولها وتقول «أمشي مشي أهلك ولو انكسر ظهرك، ستعودين ستعودين، تطلّعي تنزلي ستعودين، ابن عمك وستطلع روحك من بيته»، هند التي نظرت إليها وأجهشت في بكاء مرير سيحملونها عائدة إلى بيتها بعد عدة أيام مع عدد من أقفاص المانجو والذبائح وقطع الصابون بعد أن أطلقوا البخور في كل مكان وعادوا.

لم تبك بعدها، صارت الخادمات يلاحقنها وهي تخرج بالليل عارية تماما وتقف في الفضاء مذهولة وحينما تفيق من ذهولها لا تتذكر ذلك، ذات ليلة مشت حتّى بيت النجدية بهذه الهيئة ووقفت أمام «للوم باشا» الذي فتح الباب لطرقها المتواصل ثم صرخ مناديا عليهن ليلقين عليها أول ملاءة قابلتهن، كان بطنها منتفخا قليلاً ولها النظرة المحايدة المندهشة نفسها، أحَطْنها بذهولهن وهي لا تعرف لماذا ينظرن إليها بجزع، لم تكن تبكي أو تصرخ أو تسقط على الأرض كسقاوة متشنجة ومع ذلك قيدوا قَدَمَيْها وذراعيها ووضعنها في الفراش وأحكمن غلق

الباب، وبعد أن صار الذي في بطنها لحما ودما، قُدنَها إلى البيت المظلم حيث حَلَلْنَ القيود، وأُغْلَقْنَ النوافذ والأبواب وظلت «هند» من فتحة السقف التي تتدلى منها السلال تتطلع إلى ظبية هاربة تركت وليدا صغيرا لم يتعلم الركض في سماء سوداء قاحلة.

# 7

ليس لسهلة صورة عرس بضفيرة من الفل أو تاج من الألماظ، كان لها فقط مفرش بلون البنفسج وستائر باللون نفسه، لم يغيروا من الغرفة التي سكنتها هند قبلها شيئا، ولا أدري هل دخلت فاطمة القرومية معها أيضا أم لا، كانت دائما في الصور بهذه الهيئة، تجلس على كرسي، نحيلة كما هي الآن، ورثت من أبيها ذلك العود الطويل النحيل والأنف المعقوف والبشرة المتماسكة، كان لها رقبة ناقة كما تقول النجدية، تلك الرقبة المميزة التي لم تكن لأيٍّ من أخواتها، والعيون السوداء الكحيلة المبحرة، لم ترث من النجدية بياضًا ولا حمرة، ولم يكن شعرها كشعر هند أو سقاوة، ضفائر غزيرة، بل شعر فاحم كثيف وقصير، اعتدتُ أن أراها تلف الخصلات الأمامية في الجوارب القديمة المحشوة بالقطن لتصبح اسطوانية تلف عليها خصلات الشعر، لتصنع منها بوكلة على الحاجب بفرق جانبي في يمين الرأس وبمزيد من الجوارب المحشوة تلف الخصلات الخلفية لتصنع استدارتها وتمويجها، مفتونة بتسريحة ليلى مراد، أو أسمهان،

بثوب أحمر وبورودات بلون الفل يكشف ذراعيها وفتحة صدرها وينسحب أسفل ركبتها منفوشا بالجيبون، وبعقد من اللولي الأبيض حول الرقبة الممتلئة الطويلة، تجلس في الصورة وعلى ساقيها طفلة طرية بلون القطنة وهيئتها، في فستان من الكروشيه الأبيض تحملها باتزان وأناقة على الساقين المضمومتين كأنها لم تكن في يوم من الأيام سوى هذه المرأة التي تحمل طفلة، ولم أكن قط إلا على ساقيها في الغرفة التي لها ستائر البنفسج. كانت تجلس أمام فراشها صباحا على كرسي عميق يواجه النافذة المطلة على بعض أشجار التوت والعنب، كنت بجانبها دائما عندما يدخل كل يوم حين يشعر باستيقاظها وأنها ارتدت هذا الروب السماوي الذي يزيدها إتزانا وأناقة رافعة شعرها، كاشفة تلك الرقبة العالية والعينين المتسعتين العميقتين. كان يدخل بعد أن يتأكد من أنها سمعت طرقه، لينحني فوق ابنته مقبلا عنقها ومطوحا إياها في الهواء، بعدها قد يقول كما كانت دائما تسمعه: «بنت عمي بخير» «بنت عمي تريد شيئًا» وعندما تجلس في التراس ضحوا إذا كان الشتاء، وليلاً إذا كان الصيف، تسحب خيوط الكانفاه، كان يركن ظهره إلى الحائط ويجلس مفترشا الأرض ليتحدث عن المهاري والشواهين أو زرع نخلات جديدة في الفناء أو رحلة صيد مقبلة. كان يتكلم دائما

بلهجة غير محددة ويبدو كأنه يحدث نفسه وكان لابد أن تكون مهرة هناك ليقول «يا أميرة أبيك عمك مبارك يقول إن جبل عتاقة مازال مليئًا بالجوارح، الصقر يُولِّفَ على المهجور، والطيرة الحرة إن عبرت البحر تسقط من التعب عند أول تلة»، «السفرة التي مضت أطلق عمك مبارك صقره الرامح خلف سرب من الحباري، ذقت الحباري ياحبيبة أبوكِ، السفرة القادمة أصطاد لك واحدة بشرك، الخرطوش يسقطها ذبيحة، المهم يا صغيرة، عمك مبارك قال يارامح شوف شغلك، كثيرا قلت لعمك مبارك صقرك خائب ولم يصدقني. تتصورين يا أميرة أبيكِ جاءها الصقر من خلفها، والحباري إذا رأت الصقر من خلفها بزقت عليه ماء يشبه الصمغ يلصق ريش أجنحته ولا يستطيع الحركة فيسقط، قال عمك مبارك يسميه «الرامح»؟! ساعتها سقط وعليه كومة من البَزْق الصمغي وأبوكِ يضحك حتى شرق من الضحك، ليلتها ذبحنا حمامنا الذي خرجنا نتصيَّد به، وشويناه وعدنا.. قلت لعمك مبارك لو يسقط في ملفافنا شاهين سنقاري أو كوهية حمراء، كنت زماني شيخ العربان، عارفة يا أميرة، الأمير «لبد» يشتري الكوهية بخمسين ألف، قطعة واحدة، واللهِ أبوكِ لو ربنا أعطاه فقط كوهية وشاهين، كان صار شيخ العربان «ذقت الحباري ياحبيبة أبيكِ، لحمها مثل الرومي بالضبط، ولونها

أبيض» في دار جدك الباشا كَانَتْ هناك قاعة مليئة بالحباري، كان يُرَبِّيها كما نربي الحمام، الله يرحم جدودك يا بنت عمي الله يرحم الغاليين». عند نهاية الجملة فقط يتضح أنه كان يحاول أن يكلم صاحبة الثوب السماوي وأنها تدرك ذلك، ويبدو الأمر كما لو أنه لا يعنيها، فقط تراقب بأسى صفقاته مع النساء القصيرات اللاتي يعطينه الأوراق بعد أن يختمن ويبصمن، بائعا لهن هذا القيراط أو ذاك، محاولا أن يتقي نظراتها بأن يضع الصغيرة في حجره مرددا أهزوجته المفضلة.

«الراجل إن خس ماله من إيده حيلته زهيده.. الراجل الحق مثل الذهب في المراود، إن راد ربك ينكسر وينصاغ صيغة جديدة»* .

كان هناك عمات كثيرات وبنات أعمام يجلسن في تراس النجدية يركض الصغار حولهن، يَسْكُبْنَ فناجين القهوة ويتحدثن عنها، متى سيعوض الله عليها بالخلف؟! تراقب هي خطوات مهرة المتسارعة في ضجة اللعب وتقول إنه فعل، وأنها لا تريد أكثر من وجودها في حياتها، وحينما كبرت قليلا وكانت مهرة تجلس بعيدا عنهن، من فتحات النوافذ كان يمكنها سماع كل

* خس: قَلَّ، والمعنى أن الرجل الحقيقي مثل الذهب يعاد صياغته بعد أن ينكسر

شيء، صارت تسمع سؤالا أكثر دقة عن كونه ينام في خيمته، ولا يبيت في غرفتها، تجيبه بخفوت «كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه»، وكانوا لا يستطيعون التكهن وسط ترفعها عن الكلام، هل كان ينام في غرفتها بعض الليالي أم أنه لم يفعل. بعد ذلك وحينما كان عليها أن تفهم وحدها اكتشفت أنه لا يجرؤ على التحديق في وجهها أبدا، وأنها لابد أن تكون بينهما إذا أراد أن يجلس جانبها، ليتحدث عن كلبه السلوقي الذي دربه على ملاحقة الجرابيع، أو أنهم فقدوا طريقهم في سفرتهم الأخيرة، ولولا أن «أبو شريك العيادي»، وهو دليل قوافل قديم كان يعرف مواضع النجوم لهلكوا. كان يبدو كطفل يثير إنتباه أمه، أما سهلة فقد كانت تركز نظرها باتجاه شيء واحد بعيد، وتهز رأسها موافقة، أو تضع عينيها على حركات مهرة كأنها الشيء الوحيد الذي يخصها في هذا الموضوع، كانت تمتلك كبرياء ناقة حرون، ساكنة وهادئة ولا مبالية.

الجدة فاطمة التي رشت لها الرشوش؛ كي تذهب عنها الكوابيس ويهدئ الله سرها، وقطعت لها التبيعة التي تفسد عليها حياتها، تلك الروح السفلية المؤرقة كانت تقول عنها «مسكينة .. يا بنت الغاليين»، وربما أرادت مرات أن تقول لها إنه ما عاد يجلس في بيت القرومية على الإطلاق وأنه قد يكون

الآن زوجا صالحا، لكنها لم تكن توحي بمثل هذا الإنصات، النجدية نفسها، وأمام تحفظ ابنتها لم تكن لتعرف هل مازالت ابنتها الصغرى بكرا أم دخل بها، كان يغيب عنا طويلا ثم تهب عليه شهوة الإقتراب من مجلسها فيأتي كيتأمل الرقبة العالية والعينين المبحرتين ويضع مهرة في حجره أو يمسِّد شعرها بعد أن صارت أطول قليلا ويقول «يا أميرة أبيك، مهرتك إمتلأت وإن جاء ولدها دهمة* مثلها فيسكون لديك أعرق مهرات العرب»، وقد يجلس الساعات ليحكي لها الأحاجي عن الذي:

يعـــــــدي علـى الموج يرمش
عـامـدا جـبـالا خـوالي
لا زول جـــــــابـه مـن الـعـش
ولا نـال مـــا فـــيــه والي

وبين أصابعه التي تلعب في شعرها تقول: الغزالة، فيضحك، و«وهل تعبر الغزالات الموج وتسكن الجبال يا أميرة العربان؟»، «المهرة»، «وهل المهرة تكمن في العش يا أميرة العربان؟» .. «الصقرة»، «صح يا غزالة أبوك»، الصقر يعبر الموج ويأتي من بلادِ الثلج ليحط على جبالنا العزلاء، أتعرفين ياحبيبة أبيك لماذا لا ينال ما فيه والي ولا أمير ولا ملك؟!.

تقرفص فى حجره متسائلة أكثر «لأن الصقر عزيز لا يأكل مِنْ فَضْلَة أحد، ولا بد أن تتركي له الطيرة التي يمسك بها ليأخذ

* نوع من الخيول.

منها أول نسرة، بعدها يتركها هو لك» يحملها على ظهره ليعودا إلى خيمته حيث العمة «مزنة» جالسة تبط له خبز الرماد وتغلي القهوة.. وتتناولها منه لتغني لها:

عـــينك عين الصـــقـــر الحـــايم

واحنا ناس رقـــاق عـــزايم*

العمة «مزنة» التي لا تكف عن تشبيهها بالصقرة وعينيها السوداويين والمهرة والمها. كانت لا تكلم «سهلة» على الإطلاق ولا تدخل البيت. فقط تجلس جانبه تشعل له النار وتسقيه الخضيض وتأتي من العلواية التي تسكن بها وحدها، على حمار بخرجين وفي يدها عصا غليظة، تملأ خرجيها بخبز الشعير وجميد ولبن خضيض وأكلات أخرى لا تعرفها، وتسير بثوب أسود متمنطقة، بنطاق من الخرز الأحمر ومازال ذهبها في صدرها يصل إلى وسطها، وحين تعبر الشوارع التي صارت مليئة بالغرابوه والبرامـوه والشوام، والمهاجرين والفلاحين الذين لا تستطيع أن تقول إنهم «حبايبنا وخدامينا» كانوا ينظرون إليها باستغراب. العجائز فقط سيقولون لها «اتفضلي يا ستنا» قبل أن ينهرهم أولادهم مؤكدين أن كل واحد سيد نفسه الآن.

---

* لك عينان مثل عيني الصقر ونحن عزيمتنا رقيقة لا نستطيع مقاومة فتنتك.

بعد أن صار أكبر قليلا وصارت أكبر أيضا، كان ثلاثتهم يجلسون في شرفة لمنزل قديم يطل على نيل ومراكب، وكانت الحوائط باهتة والإطارات التي عليها للموم الباسل و«بيير كام» وهند وانشراح وتلك الصور الأخرى تبدو أيضا قديمة وبلا فخامة مجرد أشياء تعسة تحتاج إلى الكثير من الترميم، مثل الحمّامات التي تخرج منها صراصير حيّة وأسراب نمل وأثاث عليه بقايا سنوات كثيرة أتعبته، ولم يكن شيء بها سوى النهر والمراكب، حتى إطار الشرفة الحديد المعشّق بالخشب صار وسط البنايات الرخامية التي أحاطته بائسا وأكثر تعاسة من جلستنا الثلاثية على كراسي من البامبو الذي اكتسى لونًا ترابيًا داكنًا.

كان يأتي فقط ليتفقدهما قائلا «بنت عمي بخير» ويقول لمهرة «يا ستْ أبوكِ تأخذي العين هذه ولا العين هذه» كان يبدو أكثر ضعفًا حين يحب أن يقول لها إنه سافر بلاداً بعيدة مع الأمير «لبد» وهي تساعده في حمل كوب الشاي بيده المرتعشة ليقول «آه لو فرخة سنقارية يا أميرة، كان أبوكِ صار شيخ البدوان» صارت تناوله أيضا علبة دخانه التي ينسى مكانها وهو لا يكف عن لضم السجائر في فمه والسعال، ويبصق أشياء موجعة من صدره، قبل أن يمضي كان يتفقد بعينيه شَيْبَهَا الذي لم تصبغه

بالحناء تركته خصلة بيضاء على جبهتها، رافعة شعرها في «التريبون»، ذلك البونيه الذي يضم شعرها كاشفة الرقبة نفسها التي ترك عليها الزمن خطوطا زادتها فتنة وترفُّعا مثلما زادتها الملابس الغامقة الأكثر احتشاما مزيدا من الكبرياء.

# 8

«غـــلاك لا تخـــاف عليـــه

مـــدسـوس بين عـــيني وهدبهـــا»

يهنهن متكئا على رسغه، بثوب أبيض وعقال تنسدل من تحته العمامة البيضاء التي يطويها من الجانبين على رأسه، في فمه سيجارة مشتعلة يثني كفة يده المواجهة للكاميرا حيث يقف طير جارح، كان يطلق عليه دائما «الحرّ»، يقول الحر ولا نعرف هل هذا نوعه، «طير حر» أم لقبه «الحرّ» يروضه حتى يصبح على ثنية ذراعه إذا طواه، ويطير ويحط على كتفه متى مشي، يحط ويطير ويعود إليه، يجلس ودائما خلفه بيت الشَّعْر وأمامه الأرض الرملية المواجهة، حرص دائما على أن تظل رملية وبلا غرسة ولا شجرة، فضاء تحوطه الأسوار التي صارت بفعل الزمن مهدّمة وعديمة الهيبة، تضعها مهرة في مواجهة مكتبها، بإطار قديم له لون الفضاء الذي تحبه، وحين تدخل سهلة محاولة تحاشي النظر إلى الحائط الذي يواجهها بصورته، تعرف أن عينيها تهربان، ولكنهما ستخذلانها مرة بعد أخرى وتتسللان لتراقب السيجارة في فمه والحر، على ذراعه وخاتمه الذي لم يخلعه من

يده واضحا في ثنية الكف، حين فارق بيت الشَّعْر وجاء ليجلس بجانبها في البلكون كي يدَّعي أنه جاء ليشرح لي أهازيجه لتصير ابنة عرب حقيقية ثم يهنهن:

«غـــلاك لا تخـــاف عليـــه
مدسوس بين عيني وهدبها».. أو
«القلب يا بعـــيـــد الدار
يمسي مـــعي ويبـــات عندك»

تهز رأسها كما يفعل وهذا الوجع يركل صدرها بينما تدير سهلة وجهها بعيداً متأملة السماء أو الممشى متشاغلة بفرك أصابعها ويحاول فك شفرة أهازيجه.. «محبتك لا تخشى عليها فهي مخبأة بين عيني وأهدابها، أو القلب يا من بعدت دياره، يمسي معي ولكنه يبيت عندك».

يمسح لعابه بطرف كمه ويتسنَّد على عصاه، كان هذا قبل أن يرقد والسعال الذي يحتل فواصل الجمل يصارع لهاثه، وقبل أن تقوض «سهلة» بيت الشعر نهائيا لتفتح له غرفة بستائر بنفسجية لها باب يطل على شرفة من تعاشيق الخشب والحديد المطروق، زرعت في جنباتها الريحان وتركت أشجار اللبلاب تتهدل على قوائم الخشب القديم الذي أحرقته الشمس، فتحت له النافذة التي تواجه الفراش، فغردت عصافير كثيرة، وكان يراقب

السماء والطيور التي ترفرف بعيدا ويقول «القاعة الفسيحة التي كان يتكئ فيها على البساط كانت ممتلئة بقصبان الملح. قال: خمسة عشر جارحًا تقف على القصبان، كي لا يفسد الفطر بطن الساق، أدار سيجارته في فمه وهو يتفقدها.. ثلاثة شواهين بيضاء خالصة، أتى بها «الأمير» من كندا، تفقَّد مخالبها ومدامعها، كلها كانت ابنة العام الأول. المكيِّف الذي يدفع بالهواء البارد، كان يخفف صهدة الأرض التي تفوح بها هذه الصحراء، في الجانب الآخر من القاعة، كانت خمس من النداوى* الحُمْر القانية وفي ظهورها هذه النقاط المرشوشة كالندى باللون الفاتح، يهز يده التي تلضم الدخان، ويقول لمن حوله: «النداوى شرسة، هذا النداوى الأقرع أكثرها شراسة». الصقرة السنقارية السوداء التي كان الأمير يعشق النظر إليها وقفت وحدها، يقول إنها «نادرة، كوهية* خالصة السواد»، صف بقية الصقور في جهة واحدة، قال «الصقر أشجع، لكن الشواهين أذكى»، إنها تولّف على صاحبها وتفهمه بمجرد النظر، ركن ظهره إلى الحائط ليحيط بها بنظره وجلس يخصف في شراك كثيرة من سبيب الخيل** ويهنهن بمجاريد عن العيون والمخالب والمنصار، كانوا

* النداوى، الكوهية: أنواع من الطيور الجارحة ** السبيب: شعر ذيول المهاري.

حوله، وعلى أغـينهـا هذه «الغـمـاية» الجلدية السـمـيكة التي تحجب الرؤية، جائعة ومُنْهَكَة لتستجيب له ولتدريبه، علا صوته أكثر لتتعرّف نبرته، كان مولعا بالأشعار وحفظها، كما كان مولعًا بالمشهد الذي هو جزء منه الآن، طيور كثيرة يسميها كما يحلو له، مبتدئًا بالسين، تلك السين الموجعة كحروف اسمها العصي البعيد.. سعد، سبع، سهم سريع، سرد، سند، تعرف الجوارح الفرق بين حروف كل واحد فيها، يهتف بالاسم واضعا أمام صاحبه الحمامة الحية المعقوفة الجناحين تقفز هاربة متحاشية نقرته المميتة في مذبحها، بين الرأس والجسد يغرز منقاره الحاد وعلى حواشيها يترك أظافره تنزع الريش، فاتحا في صدرها تلك النسرة التي يكتفي بها من غنيمته، سيقول إنه «حرّ» لا يأكل إلا حيا وإن قتله الجوع فلن يرضى بجيفة، بعد ذلك سيترك للجارح متعة إطلاقها من جناحيها، وربط ساقها بطرف خيط يربطه في وتده، ليترك له متعة إمساكها بمخالبه، مطاردتها ونشب أظافره في لحمها، ثم يعود متشامخًا على وتده، ليغني له بعدها.

وخـــايف من الحـــرّ القـــاتـل

«نـــداوى»* مـتكوبي بحَـمَـار

* نداوى: نوع من الصقور - متكوبي: مخضّبة

نـداوى مـــــــاهـوش ســـــــاهـل
مـــــــربّـة فـي كـــــــارة بـزّار
يـجـــــيـب الخـــــارم والجـــــافـل
وحنّى كـــفـــه والمنصـــــار*

يراقب هنهنة الحروف ومخارجها ويردد المجاريد على لسانه ليعرف كل جارح أنه يشجعه فهو حرّ، قاتل ليس سهلاً لأنه تربى على يد معلم حاذق، يأتي بالطائر الخائف ومن دمها تخضب كفه ومنقاره.

يهزج لجوارحه بهيام محب، يمكن أن يقضي الليل الصحراوي الطويل في هذه الأرض الرملية التي لا يدب فيها سوى بعض الخدم الهنود والآسيويين. يرى قلاع وقصور الأمير بعيدة، يضوي فيها النور وترمح في طريقها السيارات الفارهة ولا تكف الضجة، يراقب العتمة الجبلية وأكوام الرمال في مد البصر ويقول لـ «عُطَيْر»، الشاب السوداني الذي يرافقه في تدريبها «ياعُطَيْر كان لجدي الشافعي صقر يدعى القنوع الله يرحم الغاليين، كان يبرك على الصيدة فيحللها ويشرب فقط بضع قطرات من دمها ولا ينهش صدرها أبدا، جدي رحمه الله هو الذي يلقي له منابه وهو واقف على وتده، عمّر معه اثنا عشر عاما حتى طفقت بشرة

* مربّة: تمت تربيته. - كارة بذار: مكان للتدريب. الخارم: الطائر. - الجافل: الخائف.
* المنصار: المنقار.

في حبة ساقه بين مبضع مخالبه، قالوا المسمار ينخز في عظام الساق حتى يهلكها، صار «عجوزا» في بضعة أيام وفي ساقه تكبر البثرة وتصبح في حجم الليمونة حتى وجدناه في الصباح كومة ريش متخشبة»، يهز عطير رأسه وهو يلوح ببصره باتجاه الضوء البعيد «الأمير عاد من سفرته» يكمل تدخين سيجارته وهو يتنقل من جد إلى جد، يتوجه إلى الصبي الأسمر ويقول «جدي منازع الله يرحمه رحل كثيرا إلى دياركم، هل تعرف «ود مدني» ياعطير جلب منها أم العبدة التي نشأت في دارنا كان اسمها انشراح. عطير الذي كان يحدثه عن السيارات المكومة خلف القاعة متآكلة من الصدأ أو العطل، قال له إنه لا يعرف «ود مدني» ولا انشراح، ولا جده هذا، أو ذاك، لقد جاء ليأكل عيشا وليس لدراسة تاريخ عائلته، إبتلع القهوة المرة دفعة واحدة وهو يقول له «ياعبد فيك ريحة التعالب» عطير الذي سحب قدميه ووقف بعيدا يتأمل القلاع والعربات تركه لهذا الليل الصحراوي وحيدا يرصد الكائنات الرابضة بتشامخ على قصبان الملح كأنها فزاعات مرصودة لإخافته، في النهار يحوِّل القاعة إلى سرك يطلقها واحدا واحدا مناديا على كل جارح باسمه، سند، ياسند، هل تبصر هذه الحمامة، هاتها ياسند، يطير الجارح ولكنه لا يتوجه إلى فريسته بل يحاول الفكاك، يتخبط في السقف، يجذبه من الخيط الذي لم يزل حول ساقه، وهو يكمل

«ياسند أنت ولد شقي، ولن تأكل شيئا ستنظر لسبع وهو يأتي بها» «سبع، ياسبع.. أنت أذكى من صاحبك.. هاتها». السنقارية وحدها كلما رأت الضوء، وأحست ببراح الخيط حول ساقها تخبطت بين الجدران، يقول للأمير الذي جاء يتفقد بَضْعَتَهُ ومرانها ومن خلفه وقف رجال كثيرون: «إنها غبية، حمقاء، كسرت ريشة من قوادمها، جلست أجبر فيها عدة أيام وأعيد لصقها بالصمغ وربطها بالخيط، لكنهاحمقاء، لم تستجب للتدريب حتى الآن».

يهز الأمير رأسه ويقول: إنه يعشق النظر إليها، (الناقة الحرون والمهرة الحرون والطيرة الحرون.. تسبي لب عاشقها) ضحكوا خلفه، وهز الأمير رأسه. حتى وهي مجبورة بالخيط والصمغ وقفت متشامخة، عزيزة وقصية، قال له، ماذا أسميتها.. إبتسم «سهلة»، أسميتها «سهلة».

الغزالات تركض، أسراب طيفية بعيدة، صخور سوداء تشق الوادي والجبل، تصعد باتجاه عيون الماء التي أسالت ماءها بين الصخور المرتفعة وانزلق على الحصى الندي، من الهيلكوبتر، كانت صفحة الوادي في غبش الفجر ناعسة فاختار السفح القريب، نزل الكثير من الهنو. والآسيويين بعيونهم الضيقة جالوا على السفح، تفقدوا آثار الهوام «قالوا وادي الضباع»،

وكان الفضاء ليس به سوى بعض أشجار الغردق، والأشجار الشوكية التي أوقدوا فيها النيران لتهرب الهوام، وتصاعد الدخان الكثيف، بعدها فردوا البُسط ونصبوا الخيام المكيَّفة ومبَردات الماء، ومدُّوا خوازيق الشواء وجلبوا من الثلاجات اللحم المذبوح، واختلطت رائحة الشواء بروائح الهيل والحبَّهان والبن المحمص، بعدها إستعدت الطائرة بأجهزة الرادار والكاميرات التي ستصور كل المشهد ليعيدوا مشاهدته مرات. الأمير ساندا ظهره وفي يده هذه النظارة المُكَبِّرَة، يرصد التلال الخفيضة التي كان على القطيع أن يعبرها قبل أن يصل إلى الماء، السهوب التي انتشر فيها الكلأ القليل كانت مكشوفة أمامه، وقف على التلة الأكثر ارتفاعا وأطلق طيوره من أقفاصها وأزال الغماية عن عيونها، ثلاثة، ثلاثة، ثلاثة، هكذا صنَّفها لتصير فرقا متتابعة، الجوارح التي خرجت متوجهة بأجنحتها الراعشة إلى القطيع الذي ركض أمامها، بحثا عن الشقوق العالية ترك لها الصغار التي أربكها الطير وهو يخبط بأجنحته على عيونها، كل ثلاثة تحلَّقت حول غزالة صغيرة تدفعها بأجنحتها في خبطات متتالية، يصعد جارحٌ ويدور حول رأسها تاركا للثاني فرصة الرفرفة بين عينيها، بينما الثالث يصعد ويهبط دافعا أظافره فوق جبهتها، والكلاب السلوقي التي انطلقت في إثرها تجذب السيقان الباحثة عن الهرب فتسقط الغزالة منهكة، حيَّة، تحيط بها العربات

اللاندروفر التي تصل بعد أن تكون الفرائس منبطحة مُعْقُوفَةً من الساقين وتتمدد كالذبيحة مطروحة في العربة، القطيع الذي كان يتـوهج منذ قليل بالشـمس القـرمزية الغـارية خلّف وراءه تسع غزالات صغيرات مطروحات في قاع العربات التي تنسحب إلى الخيام.

الجوارح التي عادت إلى قُصْبان الملح مكتفية بنسرة من صدر الحمامات التي أُطْلِقت ابتهاجا بغنيمة القنص كمكافأة لها على استبسالها في القتال كانت تقف وترفع رأسها بشموخ، وكان صدره الممتلئ بالدخان وبفرحة النصر يستسلم للهاث ويركن ظهره إلى سياج الخيمة مراقبا أشرطة الكاميرات وهي تعاود العرض مرة بعد مرة وسط تصفيق الأمير تارة وصوت جلسائه، كان يراقب بحبور التعليقات، «هذا الشاهين الأصفر النضير مثل الجنيه الذهب»، و«الله الصقر الحرّ صيود، والأحمر أصيل» .. «لكن الحرّ يعمّر أكثر من خمسة عشر عاما»، «الطير يصيد أعوامًا لكن القناص لا يقنص إلا إذا كان حيْله شديداً ابن عام أو عامين»، كان يريد أن يقول إن جده منازع كان له صقر حر عمّر أحد عشر عاما كان اسمه القنوع، لكنه لم يقل، كان يلهث فقط وينظر إلى السنقارية السوداء في خيطها وحول عينيها الغماية وقوادمها المجبورة، ساكنة لم تشارك في شيء، حلقت فقط في السماء، وخبطت جناحيها فجذبوا خيطها وقالوا «هذه

لا تُطْلق ولا تنقاد، حرون لا يرد رأسها إلا الجوع»، ربما تمنى أن يجلس جوارها الآن ويقول لها «بنت عمي طيرة تسبي العقل»، لكنها كانت بعيدة. وحده الأمير يقول له بين آن وآخر، «هذا السفاح الذي ينهش وجه الغزالة بمخالبه ماذا أسميه يابن العم»، سيجيبه بين حين وآخر سعد، أو سرو، أو سعود، ويكتفي بأن يحرك إصبعه بلطف على ريشتها المكسورة متوجسا من ضربة أظافرها التي تهاجم بها كل الكائنات التي تقترب منها في ظلامها الطويل.

كيف يستجيب لتلك المقامرة، كيف يقف هناك على الربوة والأمير يناديه، «هات جوارحك يابن العم»، الجوارح التي عرفت الآن رسغه فوقفت مطيعة لإشارة يده، الجوراح التي أسماها كل الأسماء التي كانت لأحلامه وتحلقت حوله كصبيان صغار ولدهم من صلبه، جيشه الذي صار به قائدا يدير تلك المعارك المهمة أخيرا ويؤكد فروسيته، كيف وهو الذي كان منذ دقائق يقول على كل اسم صفته التي راقبها تنمو وتلتصق بصاحبها، «سعد أشرسها يدافع بمخالبه ولا يترك فريسته إلا وعلى جلدها أثر نهشه، سرور أذكي، بضربة واحدة في منطقة محددة يعرف كيف يسيل دم ذبيحته ويلعقه، بضربة واحدة يحتضنها بمخالبه ومنقاره في مقتلها»، لكنه يستجيب مرغما، يقف الآن ليقول الإسم فقط إسم طائره ويكشف غمته والأمير يطلقه في الهواء

بعد أن يسأل عطير: «بكم اشترينا هذا؟» الأرقام التي تتناثر بلا معنى لا تشغل سوى عطير الذي كان يركن ظهره إلى الحوائط ويحدث نفسه أنه لو امتلك نفاية السيارات الصدئة لصار أغنى واحد في بلدته، ولو امتلك هذا الشاهين الأبيض لصار صاحب الأمر والنهي، لكنه كف عن هذه الافتراضات، كان الأمير يقول إن «الإبل في وادي العجاج إكثار» فلا يعرفون هل يشير إلى ماله أم إلى طير السماء، وحين انتهت اللعبة كان الأفق الغائم تحوم فيه الطيور التي كانت حتى اللحظة السابقة أسيرة إشارة معصمه، تحلق وتدور حول نفسها وتحوم حول الخيام المنضودة وكان الأمير يضحك ويقول «الطعمة تكسر العين» كانت الطيور التي لم يزل يسميها حرّة تلتاث في السماء الواسعة بعد أن اعتادت الحمامات المعقوفة تحت أقدامها، والوقوف على الأوتاد وانتظار إشارة صاحبها لتنفذها، تعلو وتهبط متفقدة الوادي الذي صار بلا إبل ولا أسراب غزالات، فضاء موحش بالعربات اللاندروفر وخيام تفوح منها الضحكات.

السنقارية وحدها أبقاها في مربطها وحيدة معقوفة مُهْتَاجَة من رفرفة الأجنحة حولها، وكسيرة بعينيها المحتجبتين، قال الأمير «هذه الدهمة السوداء هي التي إذا أطلقتها فلن تعود «المرأة الحرة والصقرة الحرة أعْنَد من جبل الصوان»»، يضحك بتلذذ لمرآها الذليل، والشواء المنصوب والظلمة التي تقطعها الكلاب السلوقي بنباحها والطيور التي لم تزل غير قادرة إلا

على الدوران في فلك الخيمة، كان الأمير يقطع من الشواء ويلقم كلابه وهو يقول «كلب ينبح لك خير من كلب ينبح عليك» من حوله سيؤمنون ويؤكدون أنه سيجمعها كلها مثلما يجمع القمري حبات القمح فقط يطلق في مطلع الفجر سرب الحمام المفخخ بالشراك، كانوا يضحكون. في غبشة الفجر صمت الضحك وانطلق الحمام وعلى جناحيه الشرك الذي يشبه شبكة من خيوط شعر ذيول المهاري، زلقة وقوية، الجوارح التي جاعت، ألقت حوافرها في الشراك لتعود إلى أقفاصها ساقطة على الأرض من جديد؛ لتؤكد لهم أنه حتى الطير الحرّ يمكن أن تعقفه من طعمته، لم يحك لهم بعد ذلك عن جده الشافعي الذي كان يوقد النيران ليعبر الناس ويقولون نار آل الشافعي، لم يطفئها جدب ولا غيث، سيقول أبياتًا كثيرة عن الكريم واللئيم والريح التي تندار وجدب الأوطان الذي يرمي الحر على بلاد الغرباء، قال أشياء غير مترابطة ولكنهم كانوا مأسورين تماما ببلاغته:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القَلَي متعزّلُ
لعَمْرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ
سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ

وكانوا يهزون رؤوسهم لمخارج الألفاظ التي تشهد بفصاحته، ثم عاد، كان يمشي طويلا ولكنه لا يصل إلى شيء، على فراشه

الذي نام عليه أخيرا وسط الستائر المسدلة بلون البنفسج كان يحلم بطيرة سنقارية عصية ترفرف بجناح مجبور بعد أن انكسرت قوادمها، لم يعد يكرر أحلامه بشاهين ألْبيٍّ خالص البياض يبيعه بربع المليون ويصير شيخ العربان، صار يقول فقط إن

المال يسقّم* كل عويل
وهو بين الناس دَوَّار*

ولكن

الساس اللي مبناه عويل
معيب وإن علّيته ينهار

العمة «مزنة» فقط ستتولى - وهي مقعدة أسفل قدميه - تفسير أن المال قد يرفع العويل لأنه يدور بين الناس يوم معك ويوم مع غيرك، لكن الأساس الذي يرفع المبنى هو الأهم، فالأصل الطيب هو أساس كل شيء، سهلة لن تعلق، سيظل يراقب يدها التي اقتربت لوضع الطعام في فمه ويقترب بصدره اللاهث دون أن يقوى على التحديق في تلك العينين الآسرتين، سيقول «بنت عمي تعبت معي»، فتهز رأسها أنه لا شيء، المهم

* يسقم: يتعب، عويل: قليل الأصل - دوار: يروح ويجيء.
* الساس: الأساس.

أن تكون بخير، ستقولها بسماحة وربما بمودة، تسمح له بأنْ يستعيد بلاغته ليرد على مسمعي

وأفنيتُ عــمــري بانتظاري وعــدها

وأبليتُ فيــها الدهر وهو جـديدُ

تلك المرة لن أحتاج إلى عَمَّتي مزنة كي تهز شنافها وتشرح، كانت تسحب يدها من يده المرتعشة ببطء تاركة فضاء الغرفة، تخلع العمة مزنة نعلها وتفترش فروة الضأن، وتجلس قبالة فراشه وتسند رأسها إلى الحائط متأملة وجهه الشاحب الذي يطارد طيف صقرة سنقارية حرون بأشعار يجتهد في أن يستعيد نسبها إلى أصحبها، فهذا مجنون ليلى وذاك مجنون لبنى، وهذا من هزج البدوان، كان يعالج ميلها عليه بقرص الدواء بتلك التنهيدة الموجعة..

«الله يعلم أن النفس هالكةٌ.. باليأس منك ولكنّي أمنّيها».

تصبح التجاعيد الدقيقة تحت عينيها أكثر وضاءة، ترتعش العضلة التي تحيط إبتسامتها لتصبح أكثر هشاشة وضعفا، قد تبكي في غرفة الإطارات وعلى فمه كانت خراطيم الأكسجين تمتد إلى الرئة المتخمة بالدخان والوجع. يشهق تلك الشهقة الأخيرة طائرا مع جوارحه خلف صقرة سنقارية عنيدة، يمضي

بعيدا لتستطيع سهلة بنت الباسل أن تبكي بحرية أكبر دون أن يطلب منها ذلك، تصبح أكثر هدوءا وحزنا وهي تراقب صورته متكئا في فمه سيجارة وعلى رسغه (الحرّ) وفي يده الخاتم الذي ستضعه في إصبعها حينما تفتح بابي لتواجهها أمام طاولة الكتب، فتدير حدقيتها بعيدا، وتغلقهما ريثما تستعيد أنفاسها الرتيبة.

# 9

مهرة بنت آل الشافعي التي ورثت بيتين، واحد على منيل الروضة لم يعد يسكنه أحد، وآخر يشرف على خليج من الرمل كان يسمى إقطاع آل منازع، ورثت أيضًا بناءً قديمًا يواجه بيت جدها يسمى المضّيفة، تلك التي كانت مسقوفة بالقرميد ومصقولة بألواح الخشب، وعلى حوائطها تلك المرايا التي لم تعد تعكس سوى غبش رمادي. حين تتفقد الحجرة التي تطل على مربط الخيل من جهة وحديقة المانجو من جهة أخرى. سيقولون لها إن بيير الذي سمى نفسه سليمان كان يسكنها، على الشرفة الضيقة مازالت شجرة المانجو الهندي التي ربما تسلقتها هند وربما تبعتها سهلة بخوف أكبر، يرصدان من خلال حديد البلكون حركة ريشته على الأوراق المحددة بالرسوم التخطيطية التي ينقلها من جداريات المقابر التي تعمل بها البعثة الألمانية. كان صهيل المهرات في المربط وعواء كلاب بعيدة يأتيهما ولا تخافان، بيير الذي عقد حوائجه بعد فترة ممزقًا مزيدًا من الرسوم وقال للباشا إنه سيسير باتجاه الكفرة أو فزان لاكتشاف الطرق القديمة للقوافل. وإنه سئم من محاكاة النقوش في بيوت الأموات، سيهز الباشا رأسه متحدثًا عن الجد منازع الذي كان يسير إلى هناك

بقوافل الشعير والملح والأقمشة. ترك خلفه مزيداً من القصاصات لرسوم غير مكتملة.

الصندوق الذي عادوا به دون صاحبه جرجرته هند واحتفظت بقصاصاته الصغيرة ثم انكفأت عليه مهرة من بعدها في محاولة لفك رموزه، لم تكن مذكرات كما حسبتها في البداية، كما لم يكن بيير بعينين زرقاوين كما تخيلته. صورة وجهه الذي تكرر عبر محاولته لرسم نفسه كانت لفتى صغير شاحب. أبو شريك سيقول لها أصفر في لون الكركم وشعره محلوق على بطحة بيضاوية وجسد أكثر تداعيًا، أصابعه هي التي أمكن تمييزها من جلسته ساندًا ثنايا وجهه على كفة أصابعه في صورة فوتوغرافية كان يجاوره فيها أبو شريك وامامهم وقدة عالية من النيران.

لا يعرفون لماذا جاء، سيقولون يرافق بعثة الألمان في البحث عن الدفائن القديمة، لكنه لم يكن يرافقهم، الذين دققوا أكثر سيقولون إنه اشترى من الباشا لفافة من كتابات الفراعين كان الجد منازع الكبير الذي رافق «دورڤتي» في تل المسخوطة يعلقه على عمود خيمته، «دورڤتي» الذي يبحث عن المومياوات ويقول إنهم يداوون بها المرضى كأن يجد دائمًا تلك الأوراق بين ساقي الموتى، احتفظ الجد بواحدة منها علقها في حقو على جدار خيمته لأن حرقها يجلب الفأل السيىء، والإبقاء عليها يخيف الشياطين، وروى عن بئر «هديوه» حين كانوا يمرون عليه، كان في قاعها تلك الأحجار المنحوت عليها رسوم الفراعين وكيف

كان ماء البئر رائقاً وقريبًا لدرجة أن يستطيع الذي يدلي رأسه رؤية نقوش الحجر بوضوح، اعتادوا بعد ذلك أن يلقوا تلك الأحجار التي سحرها الفراعين في آبارهم لأن لها فعل الشبة والمستكة، تجعل الماء رائقًا مثل الفضة، الجد الذي علق الأوراق كان يعتقد أنها تفزع رواد الخلاء وترد العين الحاسدة سيقول له المسيو «اركان» الذي رأس البعثة الألمانية في تلال اللقايا. إنها تعاويذ يقاوم بها الأموات الوحدة الطويلة ويتوسلون بها إلى الرب، فهز الجد رأسه وقال إنها تطرد الديدان أيضًا ألا ترى جثثهم تظل كقطعة ملساء من الخشب.

عندما جاء «بيير» بعد ذلك وقال إنه قريب للمسيو «اركان» فرش له الباشا المضيفة قائلاً إنه حبيبهم وكان يقنص معهم في الأرض الخلاء أو يصطاد مع الجد الأرانب البرية بالنبال. ثم أشار إلى صورته التي تتصدر غرفة الاستقبال وهو يتوسط مجلس القهوة بجوار الجد، كان الباشا قد أعجب كثيراً بالبايب الذي أهداه إليه لأنه كان من العاج الخالص وكانت عصا الأبنوس السوداء أيضًا مبهرة، لكنهم لم يعرفوا بكم علبة من الخرطوش أخذ بيير كام تلك البردية التي نقشها الفراعين، الباشا صار يضع عصاته بجانبه بفخر متحدثًا عن ود مدني ونقاوة ورحلات أجداده إلى بلاد الذهب، لن تجد مهرة البردية القديمة، لكنها فقط ستعثر في حقو من جلد الغزال كان معلقًا على أثلة عجوز على نَقْشٍ بدا لها أنه استنساخ لها.

ظل بيير يتردد على حفائر البعثة أيامًا طويلة ينقش جداريات ويرسل لجمعية الاستكشافية المصرية تقارير مفصلة عن طبيعة الكشف ودرجة ثبات اللون، كف بعد وقت عن فعل ذلك حين غرق في رسم وجوه كثيرة كانت حوله. لم يبد بيير أكثر من هاو رافق كثيراً من البعثات لأن كل الذي وجدته مهرة لم يكن سوى ملاحظات غير متعمقة ورسوم تخطيطية لجوانب الكشف. يمكن لمهرة إذا افترشت مزيداً من أوراقه الصغيرة التي دون فيها جملاً غير مترابطة ورسومًا غير محددة الملامح تستطيع التكهن بأن هذا الجالس بوجه أوروبي حليق يطل من مركبة تجتاز خارطة لمحيط هائج وأن تلك المرأة ذات الوجه المسحوب التي تركت لخفها الأحمر تحت الثوب المنفوش ملامح أوائل القرن هما أبوه وأمه.

كتب خلفها «لأنه أحب رائحة الطحلب ظل مسافرا، وكانت تجلس أمام النار تنسج عبر إبرتها رداء للشتاء الذي بلا رجل بينما كان يحمل البن من اليمن والشاي من الهند والذهب من نقاوه والعبيد من كاجو. عندما صرت شابًا أحمل تحت إبطي مزيداً من الأوراق في محاولة لرسم وجهها كان يحدثني عن شرف العمل في البحرية كنت أواصل رسم اللوحات لنساء يشبهنها».

وجه مس مارتينيه بملامحه المحددة في عباءة من الصوف ويعقال على جمل ربما في إجدى رحلاتها بمعبد أبي سمبل يعكس هيئة شابة جامحة تختلط في ملامحها الأنثى بالرجل،

الملامح الفتية تتحول إلى عجوز تجلس خلف طاولة ممسكة في يدها نسخة من كتابها «رحلتي إلى الشرق»ساندة رأسها إلى وجه حتشبسوت الجرانيتي الصلب الذي وضعته أمامها، ستقول إنها أول رحالة في التاريخ، وأن في معبدها جدارية لأمجاد رحلتها العظيمة إلى بلاد بونت. مفتونة بالرغبة في المغامرة حملت أقلامها وكان معها غدد من هواة الرسم التخطيطي الذين رأوا في الفرعونيات مقاييس دقيقة لمراعاة الأبعاد وتوازنها، كانوا هناك قبل أن يبتكر ڤوجير عدسته الدرامية وقبل أن يكون هناك محلول زئبقي أو زنكوغرافي، نقلوا مجرد خطوط أولية لبهو الأعمدة أو طريق الكباش في ذهبية باتجاه أبي سمبل أو جزيرة فيلة. يقضون الليل يرقصون على طنين بعوض النهر ويجولون في النهار ليرسموا صوراً أكثر تجريداً وهم يتناقشون حول شامبليون وسير جاردنر ويلكسنون وكارتر، ويحلمون أن تتعثر جمالهم في الأرض الصخرية للبر الغربي وتنفتح على سراديب لمعابد سيكتب عليها أسماؤهم، ليعودوا محملين بتابوت ملكة بلاد بونت أو مكتشفين سر البقاء الأزلي في تميمة «مرت - سر - قت» «محبة الصمت» آلهة الجبانات في طيبة. مُتَفَائلُون باقتناء هيكلها الضفدعي القاتم، لكنها حين عادت لَم يكن بحوزتها سوى الثرثرة عن صخور الصحراء التي تشبه الذهب الأحمر، والألوان المتدرجة للمنحدرات الرملية وصفرة زهور المشمش مع امتداد لا نهائي للأزرق السماوي والزئبق النيلي أسمتها رمزية الألوان في مصر القديمة متحدثة عن سر

المغرة الحمراء والصفراء التي يخضبون بها جسد الموتى كي يعودوا إلى لون الصحراء التي يحيها النيل كل دورة إخصاب. ومستفيضة أكثر عن متعة الرحلة إذا توفر للحمار فيها سرج إنجليزي جيد أو باخرة ذهبية لتوماس كوك.

ربما كانت تستند إلى بعض التوابيت والعاديات التي ملأت بيتها ، تلك التماثيل الصغيرة والحلي التي اشترتها من الأعراب بعقود خرز أو قطع فضية. وهي تخصص جزءاً من أموالها للجمعية الاستكشافية المصرية التي أوفدت «بيير» لجمع مزيد من القصاصات التي صار يكتبها ولا يرسلها محدثًا إياها أكثر في الخطابات عن نظرية ترميزات اللون التي صار يراها أقرب إلى السفسطة. كانت القبور المفتوحة حديثًا لا تمثل له سوى جثث، لأموات يريدون أن ينفذوا إلى السماء، ويتحولون إلى نجوم أبدية لا تعرف الغياب، الأجساد التي تكومت أعضاؤها في الأوعية الكانوبية، القلب، الأمعاء، الكبد، والبطون المحشوة بالعطر واللفائف الكتانية التي تلتف حول الجسد كانت تدفعه إلى تمزيق ما رسم، والكتابة لمس مارتينيه عن أشياء أخرى تستحق الاكتشاف كالحياة والموت. سيكتب لها «رسمت العقبان وهي تهبط بمناقيرها على جثة الناقة التي نفقت في طريق ما ، إنها تهبط في الحال، كثيفة وكاسحة كالورثة تتقاتل وتتنازع على الجسد الميت وتخلفه وراءها مجرد عظام حين يهبط المطر ستزداد الهياكل بياضًا وهشاشة كالتي يتعثرون بها في الطريق فيتأكدون أن طريقهم صحيحٌ وأن كثيراً من القوافل قد عبرت

قبلهم، أو عن التجار وهم يتحركون بالقوافل ليلاً هكذا قالوا حاملين الماء معهم ويسترشدون بالنجوم كالبحارة، يرقب الدليل حركة الأفلاك ويتحدث عن النجمات البعيدة باعتبارها خرائط حركته.

رسم «بيير» كان مزيداً من الوجوه التي اكتشفوها في قعر صندوقه، كانت النجدية على فرشتها في البلكون وهي تعطس نشوقها، حوض الغسيل والأجسام الصغيرة التي شمرت سيقانها وبدأ العرق يتصاعد من فتحات صدورها، عمامات كثيرة تتطوح على تراب صحراوي وسط بيوت طينية واسعة وأحواش لها أسوار لا تكشف السماء، يتكهنون من التفرس في الورق أن هذه أنف أبو شريك العيادي أو سمرة مبارك العبد محاولين الوصول عمن كان يخط الخطوط.

رسم عدداً من اللوحات لصقور ترمح خلف الأرانب الواجفة، وغزالات تختبئ تاركة على الرمال آثار أقدامها نقرات دقيقة تكشف المخابيء. كانت هند بوجه قطة قد اتخذت وضعها للرسم حين تسللت من على أغصان شجرة مانجو وتسلقت البلكون وتلصصت على رقدته ثم بدأت تلحس قدميه وأصابعه التي بلون الكركم، ابتسم في غفوته وضمها فدفنت رأسها في صدره وتصاعدت أنفاسهما بما يشبه شخير الرضى.

استطاعت مهرة فقط أن تعثر في قعر الصندوق على صور لامرأة أخرى لم تكن هند ولا مس مارتينيه ولا أمه، كانت لها رقبة الجازية الشريفة وقصّة شعر ليلى مراد من المؤكد أن هند

التي فرزت الصندوق أكثر من مرة قد رأت الوجه المرسوم، وأنها ضمت تلك الأوراق في جديلة من الشعر وقالوا إنها كانت تبكي كثيراً وتجلس على فرع شجرة مانجو وتضم أورقًا إلى صدرها حسبوا أنها قصاصات ماجدولين التي مزقها أخوها ذات يوم. لكنها رغم ذلك لم تخلع سيراً من الجلد العريض تتوسطه عين من العاج السحري ستجده مهرة في حافظة جلدية قديمة خبأتها إمرأة لها رقبة الجازية الشريفة تجلس الآن في البلكون وحيدة تراقب مواء القطط تنتظر إذا عبرت هند كما كانت تجيء وتلحست في قدميها وماءت فستضم تلك الحافظة التي بها صورة لثلاث فتيات كن يجلسن أسفل بلكون مزخرف بالقلل الفخارية. في الحافظة أيضًا كانت أشياء أخرى أقل أهمية، صورة الخال وتميمة المحبة. بعض قصاصات لوصفات طبخ، المكبوسة وتخزين عصائر المانجو وعمل مربى اللارنج أو طرق صنع الآيس كريم منزليًا، بجانبها أسفل الصوان كانت زجاجات عطر شبه فارغة ومع أنها تبدو لم تستعمل على الإطلاق فقد طارت مخلفة حول فوارغها قصاصات صغيرة تبدأ بزوجتي الحبيبة وابنة عمي الغالية وحبة قلبي. ومؤرخة بأزمان بدت بعيدة فوقهم كانت أثواب مفتوحة الصدر وجيبونات من التل المنشي، وأطقم من الستان الوردي خاطتها مس أنجيل، لكن سهلة لم تلبسها أبداً.

# 10

أسندت رأسها إلى البلكون عندما مرّ أبو شريك العيادي، وجلس على رماد كان أبوها يدفس فيه بكارج قهوته وقال لها «هل تعرفين طائر القنفس؟». قالت: لا، قال: كان يطير حولنا ونحن نعبر الأرض الصخرية في مسيل الحصباء فيقولون إنه أجمل صوت غنى به طائر. يحمل بيير الأوراق التي يخبئها في حقو من جلد الغزال ويجلس بعيداً ليكتب، عبرنا السهوب الحمراء ثم حر من الرمل الناعم، وقطعنا الأرض التي غشيتها قوافل ريش النعام والعاج والعبيد من أسوان صوب الغرب مارين بواحة كرر ودنقل وآبار التياهة، لكننا لم نصل إلى واحة «سليمة» - عبر الطريق القديم - كما كان يود أن يصل إلى بربر وشندي وسنار قاصداً ساحل العبيد أو مناجم الذهب!! قال أبو شريك ذلك ثم مضى، سحب العصا التي تتطوح بالشرك وفرك من عينيه ضباب الأيام البعيدة وقال: «إنه يغرد سبعة أيام بصوت يسبي اللب بعدها يسقط ميتًا، قالت له: من؟! قال: «طائر القنفس».

مشى باتجاه الأثلة التي يسكنها على الربوة أو العلواية كما يسمونها حيث كانت انشراح تختبيء إذا جاء العسكر خلفها يجري خليج منازع بالجثث النافقة وبقايا الذكريات، يجذب الخيوط التي تناثرت حوله ويبصق في كفه ليعيد لضمها في حركة لولبية كي يضمن نحولها وقوتها ثم يعقدها كي تصير دوائر مفرغة كقرص من الشمع تسقط فيه مخالب الجارح ولا تخرج، تنعقد الخيوط أكثر كلما جذبها، كان ماهراً في صنع الشراك واقتناص سبيب الخيل من ذيول المهارى، وإخفائها في جرابة ليرتق عمد الشرك، يصعد إليه هناك بعض الصبية الذين دأبوا التحلق حوله ليحكي لهم عن شرأفة بنت قبائل البشارية التي أتى بها الجد منازع، أو خشم الموس وعبيد عيلة الشافعي الستة، سيفتح الصغار أفواههم بدهشة وهو يلضم الخيوط ويفردها وقد يسألهم كما كان يسألهم دائمًا، «ابن من ياولد؟».

الصغار الذين سئموا من أن يرددوا أنسابهم التي ينساها كل مرة، وإذا تذكر فقد يعلق بأشياء لا يحبون تذكرها، مازال يحتفظ بحدة بصره وذاكرةٌ لا يمكن الطعن بها رغم انطمار كل مساحات جلده تحت التجاعيد التي أحكمت دوائرها حول العينين وأبرزت الأنف النحيل والفم المزموم، يفك أبو شريك في القراطيس الورقية التي يخرجها من سيالة معطفه القديم وينتظر أن تفور القهوة على الرماد بعد أن يشعل نيران ركوته، تفوح

منهـا روائح مـخـتلطة مـحكمـة البـهـار، وتتناثر حـوله أوعـيـة بلاستـيـكيــة فـارغـة أو ممتلئة بالماء، يعـيـد إحكام القـراطيس الورقـيـة وتخـبـئـهـا في سيـالتـه بعـد أن يمضغ مـزيداً من أوراق الداتورا ويلف في سجائره، يتقافز الصبية حول ربوته باحثين بين القنافذ الشوكـيـة والصبـارية والإشنات الجبلية عن أوراق أخرى تنبت هنا، أو هناك، يدخنون مـعـه ببطء ويقـولون له إذا أرادوا إغـضـابه «أنت جـمّال» ليؤكد لهم أنه كان دليـلاً للقوافل وليس جمّالاً، لا يجدون فـرقًا كبيـراً فـيعيد حكي ما بدأه من قبل من أنه كـان يقـود قـافلة الحج المكيـة للقـصـيـر، كـمـا أنـه رافق «دورثـتي» مع منازع الـكبيـر في جبـانـات الفـراعين قـرب تل المسخوطة حين كانت الطرق إليها مجرد خرابات لا يفكر أحد أن يطأها، وأنه ذهب كثيراً إلى مقرن البحور أو مسيل الذهب. لا يصدقون مـا يقول تمامًا، لكنهم ينصوت ويلتفون حوله لـيعلمهم غـرزة الشرك، وطرق ليْ الخيـوط وسط التلافـق كي تضيق حول سـاق الجارح ولا يسـتطيع الإفـلات، يهـبطون ويتركـونه لوحـدته يغـازل أشـبـاحًـا قـبل أن يسـألهم من جـديد «ابن من ياولد؟» ليـحاول لضم الأب بالجد ليـرسم شـجـرة لأنسـاب لـم يعـد أحد يتذكرها، قد يقضي يومه مـاشيًا بين حوائط النجع حاملاً حربته الطويلة التي علق بها خيطًا أطول يتأرجح فيه شرك كالطائرات الورقـية التي يصنعـها الصبية، يقول إنه يلفلف، لكن الشرك لا تسـقط فـيه سوى أعـواد القش من الحقول، أو ينشبك في أعـواد

السيسبان على حواف المزارع فيشد الخيط قاطعاً إياه غاضباً ثم يحمل خازوقه الفارغ ليعيد صنع شرك جديد.

الخيوط التي بين يديه ستتعقد أكثر إذا أراد أن يحكي وأن يسمعه أحد، وسيسره كثيراً أن يمسح لعابه بطرف كمه ومكان الأسنان الخاوية، ويملأ فمه بالتفاصيل، يقول ويعيد لتستطيع مهرة بنت الشافعي أن تفهم، وسيجد في إسناد رأسه إلي شرفة البيت المعشقة بالخشب والحديد المطروق واقتسام فناجين القهوة مع العمة مزنة التي لا تعير ما يقول بالاً إلا إذا ارتكب خطأ جسيمًا يقتضى التصحيح، فالشافعي لا يمكن عدّ زوجاته ولا أولاده، والبنت التي القاها الجد محجوب في النهر كي لا تتزوج فلاحًا ولو كان التركي الأحمر كان اسمها «عسرانة» وليست «خيالبة» - كما يقول - ومنازع لم يتزوج بنت قبائل البشارية، بل قبائل الشايقية فقد كانوا حراس بلاد البجة وأصهار بني سليم، وتلك لتفاصيل لم تحرص عليها مهرة التي كانت تراقب فمه الذى يرتعش وهو ينسكب بالحكايا، تراه بعد ذلك وهو يتوكأ ليسير باتجاه باب دارهم ويختفي خلف السور الذي يحيط بحدائق المانجو والبرتقال ومرابط الخيل المهجورة، على خليج الرمل الناعم الذي يتجمع عليه الشباب في الغروب ويمزجون عبق دخان مجلسهم برائحة القهوة المغلية. يتوسدون أكواعهم وهم ينظرون إليه. يسيرو طرف الخيط المعقود في عصاته يتطوح

16

ذات اليمين وذات اليسار كأنه شص من الخوص يخجل أن يصطاد به الصبية الأسماك في خليج منازع، يقترب ببطء ويتفرس في جوههم سائلاً بجدّية «عرب ولا فلاحين؟».

الصبية الذين سئموا ترديد أنسابهم قد يضحكون هم يدفسون بكارج القهوة أو يذيبون فيها قطع الأفيون وينفخون في الرماد ويقولون «الله يرضى عليك ياجد شوف سهراية ثانية». الولد الذي ناوله فنجان القهوة كان له لون أسمر داكن يرف في ثوب أبيض ويثني عمامته على رأسه. تلقفه أبو شريك بنظرة فاحصة، لم يقل له ابن من ياولد، باغته بسؤال أكثر حدة «أنت من عبيد منازع ولا الشافعي ياولد؟!»، لم يقل الشاب الوسيم شيئًا، نفخ مزيداً من الدخان وساد الارتباك ثم الصمت. أبو شريك الذي واصل تساؤله بـإمعان أكثر «أنت ابن مبارك العبد؟» أحس الفتى بتوتر أكثر، زاد من حدته صمت الجميع قال «جدي مبارك» بلع أبو شريك ريقه بفخر وهو يحاول التذكر بالضبط «جدك خشم الموس ياولد، جاء به منازع من المجرى التحتاني قرب مقرن البحور، كانوا عشرة من العبيد أسكنهم غرب «أرض البدوان» كان خشم الموس مثلك يابن مبارك له عيون ثعلب صغير ضحك الجميع من حوله ولكن الفتى لم يضحك، «كان منازع يقول له دائمًا ياعبد لك ريحة الثعالب» ضحكوا أكثر ثم ساد الصمت فأكمل:

- وماذا يسوي أبوك ياولد مبارك؟.

- بالبيت معه ضيوف يبيع لهم صقوراً.

- بعقال ياولد أم حضر؟!

- كوايته ياجد.

- وكم صيدة وقعت في ملفافكم يابن مبارك هذا العام؟!

- ثلاث ياجد.

هز أبو شريك العيادي رأسه وكفى فنجان قهوته على الرماد، كان يريد أن يتحدث أكثر عن خشم الموس، وروضة، وانشراح وقوافل العبيد التي تأتي من «هرر»، لكنه أحس أنه يجب أن يمضي، تسند على الجدران بين الحوائط الخرسانية تائها، لا يعرف كيف يعبرها ليصل إلى الأرض الرملية، والربوة وأثلته العجوز، البيوت الخرسانية التي اصطفت عالية لا تكشف شيئًا ليس وراءها سوى الطريق السريع الذي تمضي عليه عربات طائشة لا تقف لدليل قوافل قديم لتسأله عن بئر خور السبوع أو أحراش أرض البجة.

دار حول نفسه أكثر وتسنَّد على الكثير من الجدران ليعيد رسم معالم لم يعد لها وجود، كان الدوار وحده هو الذي يرافقه، منذ عدة ليالٍ وهو يشعر به كشيء يحسه ولا يفهمه، صار لا يرافقه بل يقتحم ذاكرته ويدفعه للإيمان بأنه عاش تلك الأشياء التي تمر به من قبل، كان قد سمع كثيرا عن رجال بيض يحتسون

القهوة في وقار يسألونك عن أحوالك ثم يختفون كالسراب كأنهم يذوبون في ذلك الوهج الصحراوي الأخاذ، صار مستعداً لأن يتبادل مع أشباحه الحكي ولا يزعجهم، لكن الذي يرافقه لم يكن أكثر من رائحة لمزيج من البوتاس الذي تغسل به النسوة مختلطًا برائحة فطر أو كلس، تلك الرائحة التي هي رطوبة قبر قد فتح لتوه ليضعوا فيه وافداً جديداً، بدأ الإحساس بأنه عاش كل تلك الأحداث من قبل يطارده أكثر. ولا يجد سوى أن يطلق ساقيه لتسير بلا اتجاه مصاحبًا هذا الدوار. يقف في منتصف الشوارع بعد أن يفقد اتجاهه، يقف طويلاً بجوار الحوائط ليقرر أن دخول هذا الشارع سيفضي به إلى الجرف العالي حيث تسكن العمة مزنة، أو يعرج منه إلى تلال اللقايا حيث معسكرات البعثة الألمانية وهل يجد في نهاية الطريق دوار آل منازع أم بيوت أولاد الشافعي؟! يدور حول نفسه ويعود ليسأل المارين، «بيت من هذا ياحلوة؟!» و«دوار من هذا ياشيخ العربان؟!» وعلى الرغم من أنهم يجيبونه بالتفصيل عن أنسابهم وأصحاب الأبواب المغلقة فلن يستطيع أن يضعهم على خرائطه القديمة لإقطاع البدوان، تلك الأرض التي كان يعرفها منذ كانت مرمحا للرمال ووسط بشر من المفترض أنه يعرف أسلافهم حتى الجد الأول.

شد أبو شريك خيوطه التي توشك على نهايتها وقال لها إنهم أبحروا من أسيوط غربًا مرورا ببئر خور السبوع، في اليوم

الأول، كان ماؤه المالح لا يستطيعون التزوُّد به، قافلتهم كانت خمس ركائب حمّلوها بالمؤنة، ناقته وحدها هي التي كانت تحمل صناديقه الكثيرة، بعد ثلاثة أيام من صحراء قاحلة عبرها آلاف المرات، كان يعرف جحور الأرانب وأماكن الهوام، وعدَّ كل أشجار الغردق على ربواتها، ركض خلف الغزالات وتشققت قدماه من المشي بها، تبعثرت الطرق مع هزج الجمال وكان الغد لا يكشف سوى رمال حمراء قانية، كانوا يفترضون أنه في اليوم الثالث بعد عبور وادي زيدون بأحجاره الصلدة التي لا يشقها سوى ممر ضيق سينبسط الأفق عن الأرض الخفيضة وتظهر آبار التياهة بمائها الرائق ليتزودوا منها، أعادوا رسم خرائطهم، التلال الرملية التي انشق عنها وادي زيدون لم تنته كانت كثبانًا حمراء تتعثر فيها أقدامهم كبحار من الدقيق الهش، والأرض كلما أوغلوا ازدادت جفافًا، والدواب الخمس سئمت من البحث عن عشب يصلح للمضغ.

«بيير» الذي اكتفى بالانكفاء على أوراقه ليرسم أو يكتب كلما خيّموا لم يوافق على فكرة العودة، الأرض الرملية التي اندثرت فيها آبار التياهة كشفت في اليوم الرابع عن حصباء حجرية بدأوا يرون على حصواتها آثار دم وقيح ينز من أول النوق التي تركوها خلفهم وعندما عادوا كانت جثتها النافقة إحدى العلامات التي تعرَّفوها، الصناديق التي انتقلت إلى سنام آخر كان يجب تقليصها بإلقاء أكداس الملابس التي في جرابه

وتمزيق عـدد من لوحـاته والتـخلص من أدوية الصـداع والإسهـال والقيء بعـد أن صـار العطش هو المرض الأقـوى والذي تأهب لأن يفتك بهم جميعًا ، لكن الذي أرغمهم على العودة لم تكن النوق بل كان الطريق، فرغم أن البوصلة ساهمت في تحديد اتجاهاته بعد أن رصدوا الشعري اليمانية تقطع السماء عرضًا ، والنثرة تغيب باتجاه الغرب، ولكن آبار التيـاهة لا تظهـر ولا مـسيل الخصباء يكشف بئر السلطان كما كانوا يتوقعون، ولم يعودوا يرون سوى مجرد سهوب حمراء برمال شديدة القسوة تطير وتركل في حدقـاتهم، اضطر «بيـير» إلى إلقـاء نظارته على الأرض بعـد أن حولتـهـا الرمال إلى خدوش لا منتـهـية يصـعب الرؤية من خلالها ، اكتـفى بـإخفاء وجهه تحت اللثام وشد حواف العقال على رأسه واستبدل حذاءه الرياضي بخف من سيور الجلد، أعـادوا حسـاب ليـالي السـير. النثـرة تأرجحت باتجاه الشمال والجبار في الجنوب وبدت نقرات الظباء جلية تكشف عن آثار ظبية في صحراء شاسعة، استعاذوا بالله من نحس الطالع وقالوا إنها نذير فراق، لكن سحابة الغبار شغلتهم عن العرق الذي كان ينز من جبينه والذي تحول إلى سخونة لا تكفيها الخرق المبللة، نصبوا له صندوقه الخشبي على ظهر الركوبة وأحكموا الحبال حوله، كانوا لابد أن يعودوا بأقصي سرعة، لا لينقذوه بل لأنه ربما نالهم المصير نفسه والقرب تفرغ واحدة تلو أخرى.

يتمايل الركب وسط هنهنة خفيضة تختلط مع هذيانه الذي أضحى مسموعًا، لكنها لما صارت فوقهم تمامًا تلوح في السماء بهيئة نجمة تركض وخلفها صغارها الواجفة. قاموا فوسَّدوه الأرض الرملية حيث كانت هناك آبار يقال لها آبار التياهة كانوا يمرون عليها ذات يوم.

في الحقو لم تكن سوى بردية اشتراها من الجد قالوا إنها ظلت معلقة في عمود خيمة ما لتفزع رواد الخلاء، إذا فتحوها فقد يجدون بيوتًا وطرقات وعصافير وبطات تسير في النهر، أو راعيا يعبر بقطيعه السهوب، أمًا ترضع طفلها على الضفة الأخرى، تمساحًا يمد رأسه باتجاه مركب الصياد. ضفدعًا طينيًا رخوا يدفس رأسه في بيات طويل، حين تجلس مهرة لتفك رموز البردية، سترى راعي القطيع الذي يجلس على ضفة النهر يشبه جدا من أجدادها كان يسير وسط التلال التي لها لون المَغَرَة الصفراء أو المخضبة بحمرة الشفق، وجمال تعبرها كسفن بعيدة تلوح للخلاء قد ترى آثار ظبية واجفة، أو هَيْكَل بعير نافق، وربما رماد قهوة كانت لها روائح بلاد بونت البعيدة.

## ميرال الطحاوي

- كاتبة مصرية تعمل مدرسًا مساعداً بقسم اللغة العربية جامعة القاهرة.
- أصدرت عام ١٩٩٥م مجموعتها القصصية الأولى «ريم البراري المستحيلة»، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عام ١٩٩٦م أصدرت روايتها الأولى (الخباء) عن «دار شرقيات» في القاهرة، وأعيد طباعتها في «دار الآداب» بيروت ١٩٩٩م، ثم صدرت طبعة شعبية منها في «مكتبة الأسرة» القاهرة عام ٢٠٠١م. وحازت على جائزة أفضل عمل روائي عن هذه الطبعة، في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٠٢م.
- تم إختيار روايتها «الخباء» كأفضل عمل روائي عام ١٩٩٦، وترجمتها الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى الإنجليزية وصدرت بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية واليونانية.
- صدرت روايتها الثانية «الباذنجانة الزرقاء» عن «دار شرقيات» القاهرة ١٩٩٨م، وأعيد طباعتها في «دار الآداب» ٢٠٠٠م، بيروت، وفازت بجائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ٢٠٠٠م، وترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والإيطالية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

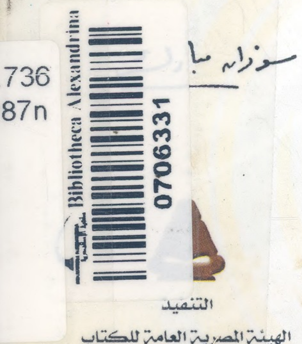
رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٥١ / ٢٠٠٣

I.S.B.N. 977 - 07 - 8724 - 0



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك




التنفيد
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٥٠ قرشاً